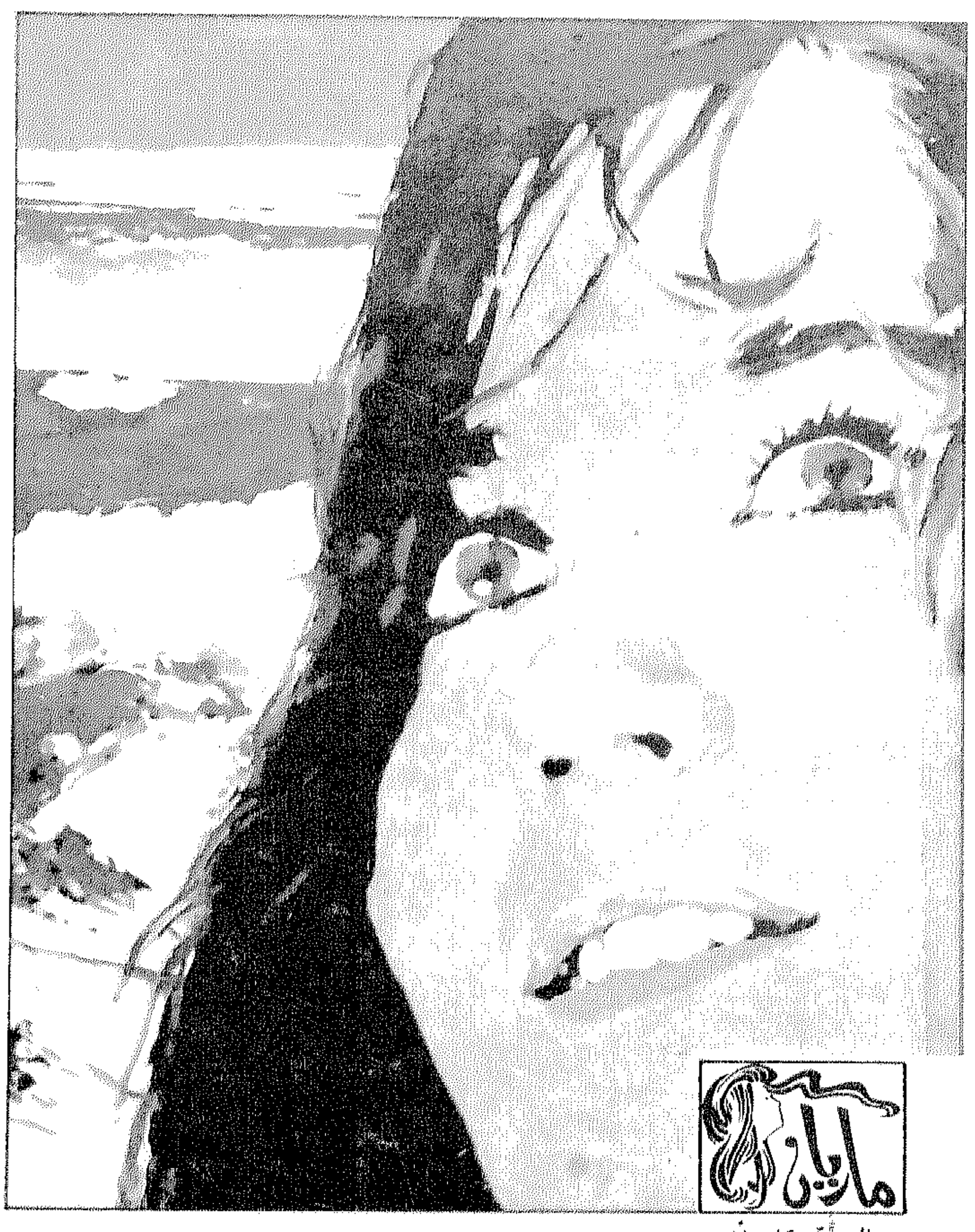
اندريه جيد

السّامفونيَا الرّاعوَيّة



النصّ كاملاً

مارايا
روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

اندريه جيد

السّامفونيا الرّاعَوِيّة

ترجمة

جورج بركات

عويدات

الطبعة الأولى ١٩٨٥

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- قوت الأرض/٢٤٠ صفحة/١٩٨٤
- مزيفو النقود/٥٢٨ صفحة/١٩٨٤
- السامفونيا الراعوية/١٢٨ صفحة/١٩٨٥

إلى جان شلومبرجيه

الدفتر الأول

١٠ شباط

الثلوج تتساقط منذ ثلاثة أيّام. سُدّت الطرق. لم أستطع التوجّه إلى... حيث اعتدت الاحتفال طوال خمسة عشر عاماً بفرائض العبادة مرّتين في الشهر. هذا الصباح لم يفد إلى كنيسة لابريفين سوى ثلاثين شخصاً.

سأغتنم هذه الفرصة، فرضها عليّ هذا الاعتزال القسري، لكي أعود إلى الوراء وأقصّ حكاية اندفاعي إلى الاهتمام بجرترود.

آليت أن أكتب ههنا كلّ ما يتعلّق بتكوين هذه النفس التقيّة، وبنموّها كأنّني لم أخرجها من عتمتها إلّا للعبادة والحبّ. تبارك الله إذ أوكل إليّ مثل هذه المهمّة.

لسنتين وستة أشهر، وفيما كنت عائداً من لاشودي فون، وافتني ابنة صغيرة، لم يسبق لي أن عرفتها، تدعوني إلى الإسراع في الحضور لدى امرأة عجوز مسكينة، تحتضر، على سبعة كيلومترات.

لم يكن الجواد حُلّ من رباطه بعد؛ فأصعدتُ الابنة إلى العربة بعدما تزوّدت بمصباح، لأنني حدست بتعذّر عودتي قبل حلول الليل.

كنتُ أعتقد أنني أُحيط هذه المنطقة بمعرفة تامّة؛ غير أنني اتخذت طريقاً لم أكن سلكتها من قبل، أشارت إليها الابنة بعد اجتيازنا مزرعة السودرة. ولكن بعد كيلومترين إلى اليسار، مررت ببحيرةٍ صغيرة فاتنة كنتُ أتردّد إليها أحياناً في مطلع سنّ الشباب للتزلّج، وانقطعت عنها منذ خمس عشرة سنة لعدم بروز واجب رَعَوي يدعوني إلى هذه الناحية؛ ولم يكن بوسعي إذّاك الإلماح إلى مكان وجودها بعد غيابها عن ذهني، فخيّل إليّ وأنا أراها، بغتة، في سحر المساء المصطبغ بلَون الورد والذهب، أنّ معرفتي بها أوّلاً كانت في المنام.

كانت الطريق تحاذي مجرى المياه المنبجسة منها، قاطعة طرف الغابة. ولا أذكر أنني وُجدت يوماً في هذا المكان.

كانت الشمس تغيب، وكنّا نسير وسط الظلال، حين أشارت دليلتي الصغيرة إلى كوخ قش على سفح تلّ كأن لا بشر فيه لولا سحابة ضئيلة من الدخّان تتصاعد منه، تزرقّ في الظلام وتشقرّ في الشفق. ربطتُ جوادي إلى شجرة تفاح قريبة، ثمّ انضممتُ إلى الابنة في الحجرة المظلمة حيث كانت لفظت العجوز أنفاسها قبل لحظات.

أرعدني وقار الطبيعة، والسكون ومهابة السَاعة. كانت امرأة شابة تجثو عند الفراش. والابنة التي حسبتها حفيدة الراحلة هي خادمتها. أضاءت شمعة، تصاعد منها الدخان ثمّ وقفت دون حراك عند طرف السرير.

حاولتُ أثناء الطريق أن أحادث الابنة، لكنني أخفقت في أن أسترقّ منها ولو كلمات.

نهضت الامرأة الجاثية. لم تكن من الأقرباء كما اعتقدت لأوّل وهلة. مجرّد جارة وصديقة استدعتها الفتاة إلى سيّدتها عندما لحظت تدهور صحّتها، فتطوّعت للسهر على الجثمان. أخبرتني أنّ العجوز انطفأت دون ألم. ثم اتفقنا معاً على الترتيبات الواجبة للدفن ومراسم الجنازة. وكان عليّ في هذه البقعة النائية أن أقرّر كلّ شيء، كما كل مرّة. ولا أنكر أنّه ساءني حصر إيكال هذا البيت، برغم مظاهر فقره، إلى هاتين الجارة والفتاة الصغيرة ولا يدور في خلد أحد، احتمال وجود كنز في إحدى زوايا هذا المسكن الحقير. وما عساي أعمل؟ سألت إذا كان للعجوز ورثة.

أخذَت الجارة الشمعة وصوّبتها إلى الموقد، فاستطعت أن أتبيّن شخصاً غامضاً مقرفصاً عند المدفأة، وكأنّه نائم، كثافة شعره تكاد تغطي كامل وجهه.

- إنّها ابنة عمياء، وقد تكون ابنةً لشقيق الفقيدة أو لشقيقتها

كما تقول الخادمة؛ وهي على ما يبدو كلّ ما تبقّى من العائلة. أرى وجوب وضعها في أحد المآوي؛ وإلّا فلست أدري أيّ مصير ينتظرها.

أزعجني سماع مثل هذا التقرير عن قدر هذه الابنة وعلى مقربة منها، لأنني قدّرت مدى الاكتئاب الذي لهذه العبارات أن تسبّبه لها.

فقلت في هدوء: «لا توقظيها»، كي أدفع بالجارة على أقلّه إلى خفض صوتها.

- لا، لا أظنها تنام. بلهاء. لا تتكلم ولا تفهم شيئاً حسبما يُشَاع. ومنذ وجودي في هذه الغرفة صباحاً لم تـأتِ بأدنى حركة. ظننتها صمّاء، لكنّ الخادمة نفت ذلك وأفادت أنّها لم تكن توجّه الكلام إلى أحد، لا إلى العجوز التي كانت هي الصمّاء ولا إلى أيّ شخص آخر، ولم تكن تفتح فاهَا منذ مدّة طويلة إلّا لتشرب أو تأكل.

- ما عمرها؟

- إنّها في الخامسة عشرة على ما أعتقد! على كلّ فما أعرفه عنها قد لا يتعدى ما تعرفه أنت...

لم يخطر لي أنني سأعمد من ساعتي إلى الاعتناء بهذه المسكينة المهملة؛ غير أنّي بعدما صلّيت، بل أثناء تلاوتي الصلاة، جاثياً

بين الجارة والخادمة الجاثيتين هما أيضاً إلى جـانب السريـر، تراءى لي بغتةً أنّ الله وضع في طريقي مهمّة لا أستطيع التهرّب منها دون أن أُرمى بالجبن. وعندما نهضت قرّرتُ اصطحات الفتاة في المساء نفسه قبل أن أُلقي على ذاتي سؤالاً عمّا سأفعله لها، أو إلى مَنْ سأُوكل أمرها. ومكثتُ بعض الوقت أتأمّل وجه العجوز السّاهي، وكان فمها المغضّن والغـائر كـأنه مشـدود بشرائط، كصرّة امرأة بخيلة حرصتْ على ألّا يفلت منها شيء. ثم التفتُّ إلى العمياء وأطلعت الجارة على نيّتي.

فقالت: من الأفضل ألّا تبقى هنا غداً عند نقل الجثمان، واكتفت بهذا الردّ المقتضب.

كم من أشيـاء نستـطيـع تنفيـذهـا بسهـولــة لـولاً تلك الاعتراضات الخيالية التي يلذّ لبعضهم أن يستنبطها.

وكم من مرّة كففنا منذ الصغر عن إجراء هذا أو ذاك من أعمال كنّا نودّ القيام بها، لمجرد ما كان يتطرق إلى مسامعنا بأنّ يستحيل علينا عمله.

وسلّمت الضريرة باصطحابها كما لو كانت كتلةً لا إرادة لهــا. كانت قَسَمات وجهها عاديّة، وعلى مسحة من الجمال، إلّا أنها جافّة وغير معبّرة. وأخذت غطاء من على فرشة القش، حيث كانت تستلقي بعض الأحيان في زاوية من الحجرة تحت

درج داخلي، يؤدي إلى التسقيفة.

كانت الجارة لطيفة، فساعدتني على تغطية الفتاة بكلِ اعتناء، لأن الليل كان، برغم صفائه، بارداً. وبعدما أضأتُ مصباح العربة، عدتُ وفي صحبتي هذه الرزمة من اللحم الخالية من الروح، الملتصقة بي، والتي لم أكن أتحسّس معالم الحياة فيها إلاّ عبر حرارة مظلمة. وطوال الطريق، كنتُ أفكّر إذا كانت تنام، وأيّ نومٍ أسودَ نومُها، وبأي شيء تختلف يقظتها عن المنام. يا ربّ، إن نفساً سجينة تستضيف هذا الجسد المظلم، تنتظر ولا شكّ هبوط شعاع من رحمتِكَ ليلمسها! ليتك تسمح لحبّي أن يجنّبها أهوال الليل.

حرصي الشديد على قول الحقيقة، يأبى عليَّ إغفال ذلك الاستقبال المزعج لدى عودتي إلى المنزل. فزوجتي حديقة فضائل، ولم أستطع لحظة واحدة أن أشكّ في نيل عاطفتها خلال الأوقات العصيبة التي كنّا أحياناً نمرّ بها؛ إلاّ أنّ محبتها الطبيعية، لا ترتاح إلى المفاجآت. فهي من ذلك الصنف الذي يأبى الذهاب بعيداً، خارج حدود الواجب، أو البقاء دونه. محبّتها منتظمة كما لو كان الحبّ لديها كنزاً قابل النفاد. وهذا هو وجه الخلاف بيننا.

عندما رأتني أعود، ذلك المساء، مع الفتاة، صرختْ وكان صراخها معبّراً عمّا جال في ذهنها لأوّل وهلة، وقالت:

ـ لأي مهمّة ذهبتَ؟

وجرياً على عادتي، كل مرّة أضطرّ فيها إلى الجدل مع زوجتي، عمدت أوّلاً إلى صرف الأولاد المشدوهين، غمرهم سيل من الأسئلة وسادتهم الدهشة. يا لهذا الاستقبال! كما كان مختلفاً عمّا تمنّيتُ أن يكون! وحدها شارلوت، ابنتي الصغيرة العزيزة، شرعت ترقص وتصفّق بيديها عندما علمت أنّ شيئاً جديداً، شيئاً حيّاً سيخرج من العربة. إلّا أنّ الآخرين الذين طبعتهم أمّهم بطابعها، خفّفوا من حماستها وجعلوها تحذو حذوهم.

كانت ساعة ارتباك وبلبلة، فزوجتي وأولادي الذين يجهلون أنّ القضيّة تتعلّق بفتاة ضريرة، لم يدركوا معنى عنايتي الفائقة لقيادة خطواتها. أمّا أنا فرأيتني في حيرة بالغة حينما شرعت هذه المُعاقة المسكينة تُسمِعني تأوّهات غريبة بعدما أفلتت يدي من يدها. ثابرتُ على الإمساك بها طوال الطريق. لم يكن صراخها صراخ إنسان، بل أشبه بنباح كلب صغير أرعبه الخوف. وإذ سُلخت لأوّل مرّة عن حلقة إحساساتها المعتادة الضيّقة التي كانت تؤلف كلّ عالمها، راحت ركبتاها تنثنيان وَهْناً؛ وعندما قدّمت نحوها كرسيّاً، تهاوت أرضاً كمن لا يعرف الجلوس. أخذتها إلى جوار الموقد، فاستعادت بعض هدوئها حالما تسنّى لها أن تقرفص كما رأيتها حدّ موقد العجوز وحيث كانت تستند إلى

المدخنة. وكانت في العربة انزلقت إلى أسفل المقعد، وقطعتُ كل المسافة وهي متكوّرة عند قدميّ. وبالرغم من كل ذلك كانت زوجتي تساعدني، بدافع سجيّتها المائلة إلى الأفضل؛ إلّا أن منطقها في عراك دائم مع قلبها، كثيراً ما يتغلّب عليه.

بعدما ركّزنا الابنة في مكانها قالت زوجتي:

وماذا بعد؟

ارتعدتُ لدى سماعي هذا النوع من الكلام، وبذلت جهداً كي أمتلك أعصابي لكبت كل بادرة اشمئزاز قد تصدر عنّي. ومع ذلك، وإذ كنت مشبعاً بتأملاتي الطويلة والهادئة، تمالكتُ نفسي، واستدرت نحوهم جميعاً، وكانوا التفّوا حولي، ووضعتُ يدي على جبين الضريرة وقلت لهم بأقصى ما استطعت من رزانة:

ـ أُعيد إليكم الشاة الضائعة.

غير أن آميلي ترفض كل احتمال غير منطقي أو فوق المنطق في تعاليم الإنجيل. ولاحظتُ أنها على أهبّة الاعتراض، فأشرتُ إلى جاك وسارة، وهما اعتادا مشاهدة خلافاتنا الزوجية، وقليلا الاكتراث بطبيعتها (وغالباً ما يهملانها لحسن حظّي) أشرتُ أن يذهبا بأخويهما الصغيرين. وإزاء استمرار زوجتي في رفضها ونقمتها على وجود هذه الدخيلة، أضفتُ قائلاً:

ـ باستطاعتك أن تتكلمي أمامها، فالمسكينة لا تفهم شيئاً.

فاعترضت آميلي عند هذا الكلام، مؤكدةً أن ليس لديها ما تقوله لي، وهو ما كان بدايةً اعتيادية لمشاحناتنا الطويلة، وأنه عليها أن تسلّم كعادتها بما كنت أستطيع استنباطه من أشياء بعيدة عن الواقع ومناقضة للعُرْف والمنطق السليم. سبق وكتبت أنني لم أركّز قطّ على ما سوف أُجريه لهذه الفتاة، ولم أتصوّر، إلّا بغموض، إمكانية إقامتها في منزلنا لأن آميلي هي التي أوحت إليّ أوّلاً بهذه الفكرة عندما سألتني إذا كان عدد أولادنا كافياً لما يتّسع له البيت. وأردَفت: إنّك السبّاق في أخذ المبادرات ولا تعبأ برفض الآخرين؛ فهي تعتبر أنّ خمسة أولاد يؤلّفون عدداً كافياً لا يحتاج إلى مزيد، وأنها منذ ولادة كلود راجعت حساباتها ورأت أنّها بلغت غاية إمكاناتها، (أمّا الطفل فما إن سمع ذكر اسمه حتى شرع يصرخ في سريره).

أحسستُ، لدى سماعي أُولى عبارات غضبها، ببعض كلمات المسيح تصعد من قلبي إلى شفتيّ، بيد أنني كَبَتُّها إذ من غير اللائق أن أحمي تصرفاتي وراء سلطة الكتاب المقدس. وخجلت عندما تذرعت بأتعابها. فتذكرت كم مرّة أرهقتها بأعمال المحبّة المتطرفة، وأفادتني احتجاجاتها في أن أعي واجبي. وتوسلتُ إليها بكل لطف أن تقدّر إذا كانت تستطيع أن تجري عكس ما أجريته أنا لو كانت مكاني وإذا كان بإمكانها

أن تترك كائناً مسكيناً فريسة الشقاء بعدما عُرّيَ من كل سند يلجأ إليه. ثمّ أفصحتُ لها عن بالغ تقديري للأتعاب الجديدة التي سوف تترتّب عليها إلى جانب مهمات البيت من جرّاء الاعتناء بهذه الضيفة المُعاقة، وعبّرت عن أسفي لعدم قدرتي على مساعدتها في أحيانٍ كثيرة، وهدّأتها أخيراً بخير ما حضرني من وسائل، وأنا أبتهل إليها كي لا تصبّ غضبها على هذه الفتاة البريئة. ثم لفت نظرها إلى أنّ سارة أصبحت في سن تمكّنها من تقديم المعونة وأنّ جاك لم يعد في حاجة إلى عناية. وصُفوةُ القول إن الله فوّهني بالعبارات التي كانت تلزمني لمساعدتها على قبول ما كان من المؤكد أن تتقبّله تلقائياً برضاها التام، لو أُفسح لها التفكير فيه ولولا أني باغتّها بالأمر الواقع دون سابق إعلام.

وبدا لي أنني أوشكت على ربح الرهان، إذ راحت زوجتي العزيزة تدنو من جرترود بلطفٍ بادٍ، غير أن غضبتها ثارت من جديد، وعلى أشدّ ما تكون من الحدّة، عندما أخذت المصباح لتتفحّص الفتاة واكتشفتها على حالة مرعبة من القذارة.

فصاحت: يا للوباء! نظّف ثيابك بالفرشاة. نظّفها بعيداً وعلى الفور. اذهب وبادر إلى ذلك في الخارج. يا إلهي! سوف تمتدّ عدواها إلى الأولاد! ليس في العالم ما يخيفني كمثل هذه الطفيليّات!

لا مجال للإنكار أنّ وفرة من الطفيليات كانت تغطي جسم هذه الصغيرة التعيسة. ولم أستطع كبح قرفي، وأنا أفكر كيف أنني ضممتها إليّ طوال الطريق.

عندما عدتُ بعد دقيقتين، وبعدما تنظّفت جيّداً، ألفيتُ زوجتي منهارة في كرسيّها ورأسها بين يديها، فريسة لنوبة من التشنج.

فقلت لها بكل تودّد: لم يَدُرْ في خلدي قطّ أن أُخضِعك لمثل هذه التجربة. ومهما يكن، فنحن في ساعة متأخرة من الليل والضوء ضئيل، فسأسهر على إبقاء النار مشتعلة لتنام الفتاة حذّها. وفي الغد نقصّ شعرها وننظّفها كما ينبغي. ولن تباشري عنايتك بها قبل إزالة كل أسباب القرف كي لا تعود رؤيتها ترعبك. ثم رَجَوتها ألّا تأتي على ذكر هذا أمام الأولاد.

كانت ساعة العشاء، فالتهمت الفتاة بشراهة صحن الحساء الذي قدّمته لها؛ بينما خادمتنا روزالي ترمقها بنظرات العداء. تناولنا طعامنا بصمت. وكنت أوَدّ لو أقصّ حكاية مغامرتي هذه، وأُحدِّث الأولاد بأمرها، وأُثير عواطفهم وأحملهم على تحسّس حالة فقرها التام لكي استدرّ شفقتهم وعطفهم على هذه التي دعانا الله إلى احتضانها. غير أنني خفت من إثارة آميلي مجدّداً، فالظرف يقضي بإهمال هذا الموضوع وتناسي هذا الحدث الذي استحوذ دون سواه على أفكارنا جميعاً.

بعد ساعة على انصراف الجميع إلى فراشهم، وبعدما تركتني آميلي وحيداً في الغرفة، حَدَثَ ما هزّ شعوري عميقاً عندما رأيت صغيرتي شارلوت تشقّ الباب وتتقدم إليّ بهدوء في قميص نومها، حافية، ترتمي عليّ وتعانقني بحرارة وتتمتم.

ـ لم أقل لك تُصبح على خير كما أُريد.

ثم أشارت برأس سبّابتها إلى الضريرة التي كانت ترقد ببراءة إذ شاءت شارلوت أن تعود إلى إلقاء نظرة جديدة عليها قبل انصرافها إلى النوم، وقالت:

ـ لِمَ لم أُعانقها؟

ـ ستُعانقينها غداً. أما الآن فيجب أن ندعها لأنها تنام.

ثم رافقتها إلى باب غرفتها، وعدت إلى كرسيٍّ، وأكببت حتى الصباح على القراءة وإعداد موعظتي المقبلة.

فكّرت بشارلوت وهي في هذا الوقت أكثر إخوتها تودّداً. وعاودتني الذكرى بهؤلاء إلى ما كانوا عليه في مثل سنّها. خيّبوا اليوم آمالي، كما ابني الكبير جاك الذي هو اليوم بارد ومتحفّظ لا يقرب الناس.. نخالهم على حنان، فيما حنانهم محور غنج وملاطفة.

٢٧ شباط

استمرّ تساقط الثلج كثيفاً طوال هذه الليلة. وكان فرح الأولاد به كبيراً. فقد يضطرّهم بعد ساعات قليلة إلى الخروج من النوافذ. وهذا ما حصل، إذ وجدنا الباب في الصباح سدّته الثلوج، وبات منفذنا الوحيد إلى الشارع عبر غرفة الغسيل. وكنت تنبّهت إلى أنّنا مقبلون على عزلة عن سائر البشرية لبعض الوقت، وتأكّد لي أنّ في القرنية كميّات من المؤونة تكفي لسدّ حاجاتنا. لسنا في أوّل شتاء نُحاصَر خلاله، لكنني لا أذكر ثلوجاً سابقة بمثل هذه الكثافة. إنها فرصة أغتنمها لإتمام هذه القصّة التي بدأتها في الأمس.

ذكرتُ أنني لم أتساءل قطّ، عندما أحضرت الفتاة، عن المكان الصالح من بيتنا حيث يمكن وضعها. وكنت أعرف مسبقاً أنّ زوجتي لن تبقى طويلاً على رفضها، كما لم أكن أجهل المكان ولا ضآلة مواردنا. وإنّما تصرفت كما في كل مرّة سالفة، وفق ميولي الخاصة وطبق مبادئي، ودون تقدير النفقة التي سوف تترتّب علينا نتيجة هذا الاندفاع (الأمر الذي طالما حسبته يتنافى وتعاليم الإنجيل). فليس سواء أن نتّكل على الله وأن نلقي بأعبائنا على الآخرين. لذلك اكتشفت الذي تسبّبتُ به لزوجتي ورأيتني على أثره في شبه ضياع.

ساعدتها على قصّ شعر الفتاة، قامت به بكثير من الامتعاض. أمّا غسيلها وتنظيفها فانحصرا بها قسراً مع الأسف. وأدركت أنّ أقرف ما في هذا العبء ظلّ على عاتقها،

وظللت في نجدة منه ومن مشاقّه.

استعادت آميلي أخيراً هدوءها، ولم تعد ترفع صوتها باعتراض. ويبدو أنّها فكّرت ملياً في هذا الموضوع أثناء الليل، وسلّمت بهذه المهمة الجديدة. وها هي تقوم الآن بأعبائها بتمام الرضى. شاهدتها تعدّ جرترود وتبتسم لها بعد إعدادها. أحرقَتْ ملابسها الرثّة وأبدلتها بملابس أخرى نظيفة كانت لسارة سابقاً. وزيّنت رأسها الحليق، الذي كنتُ طليتُه بأحد المراهم، بقُبّعة بيضاء. أمّا هذا الاسم، جرترود، فهو من اختيار شارلوت، قد تقبّلناه جميعاً بالاستحسان، لجهلنا الاسم الحقيقي الذي تحمله هذه اليتيمة وتجهله هي نفسها، ولا سبيل لنا إلى العثور عليه من مصادره. كذلك تبينّ لي أنّها دون ابنتنا سنّاً بما يقرب السنة، بدليل هذه الثياب التي لاءمتها وكانت ترتديها سارة في العام الفائت.

يجب ألاّ أُغفل في هذه المناسبة ذكر خيبتي المريرة، أحسستها تظلم أيّامي الأولى من عملي. كلّفتني تربية جرترود قصّة طويلة. وكثيراً ما حملني واقع الحال على التراجع عن محاولتي. فعبارات وجهها غير المكترثة، والبليدة والخالية من كل تعبير، كانت تقلّص في نفسي كلّ نزعة خير فيها، حتى الجذور. كانت تقضي يومها إلى جانب النار وهي على أهبّة الدفاع عن النفس، وكلّما تطرّق إلى سمعها صوت، أو حاول

أحدنا أن يدنو منها، كانت قسماتها تزداد تصلّباً. ولم يكن هذا الجفاف ليفارقها إلّا سَاعة إعلان نقمتها. كذلك كانت تعمد إلى النحيب وتخفخف كالحيوان لدى كل حركة لإلفاتها إلى أمر نريده. وكان هذا الحرد يلازمها، فلا تتخلّى عنه إلّا عند تناول الطعام الذي كنت أُقدّمه لها بنفسي، ترتمي عليه بنهم حيواني مقرف يعفّه الذوق. وكما أن الحبّ يدعو إلى الحبّ هكـذا أحسست شعـوراً بالنفـور يغمرني أمـام تصلّب هذه النفس الرافضة.

لا أخفي أن القنوط كاد يستولي عليّ خلال الأيام العشرة الأولى من محـاولتي، وأوشكتُ أن أتخـلّى عنهـا، وذهب بي الاشمئزاز إلى حدّ الأسف، وتمّنيت لو أني لم أُحضرها معي. وبدا موقف زوجتي لاذعاً إذ اعتَبَرَت نفسها منتصرة تجاه هذه البوادر التي لم استطـع أن أُخفيها عنهـا. وراحت تكثر من خدماتها لها، وتزيد من عطفها عليها مذ شعَرَت أنّ وجودها بيننا أصبح عبئاً عليّ ثقيلاً ومَدعاة لإيلامي.

كنتُ على هذه الحال، ساعة زارني صـديقي الدكتور مارتين، آتياً من فال ترافير إثر جولةٍ صحية لتفقّـد مرضـاه. فأبـدى اهتماماً بالغاً بما صرّحت به عن جرترود، وكانت دهشته في باديء الأمر على أشدّها لاستمرارها في مثل تخلّفها هذا، كونها لا تشكو إلّا من العمى. فأفهمته أنّ هذه الابنة التعيسة عاشت

إلى جانب عماها في عزلة تامّة عن العالم، إذ رُبيت في عُهدة عجوز صمّاء لم تكن تكلّمها بشكلٍ من الأشكال. فراح يقنعني أنّني على خطإٍ في تشاؤمي. وأنّ ما اصطدمت به يعود إلى سوء تصرّفي، وقال:

شئت أن تباشر بناءك قبل أن تتأكّد لديك متانة أرضه. انتبه، فكلّ ما في هذه النفس هو فوضى إذ لم تتخطط بعد ملامحها الأولى. وعليك في البداية أن تكوّن كتلة من الأحاسيس تلمسها وتذوقها وأن تربط بها، على شاكلة بطاقة أو عنوان، صوتاً أو كلمة تردّدها على مسمعها إلى أن تترسّخ تماماً في ذهنها، فتطلب بعدئذٍ إليها أن تُعيد عليك ما قلتَه لها.

«تحاشَ الإسراع في المعالجة، وتولّاها في أوقاتٍ منظّمة، وحاذر الإطالة...

وبعدما أوضح لي طريقته هذه، بدقّة، أضاف: ليس للسحر مكان في هذه العملية، وليست من اختراعي، إذ سبقني إليها آخرون. أوَلست تذكر أيّام كنّا ندرس الفلسفة معاً وكان أساتذتنا يحدّثوننا عن حالة شبيهة بهذه في دروسهم عن كوندبلاك وصنمه المتحرك؟.. ثم استدرك: قد أكون استقيت معلوماتي من مراجعٍ أخرى، من إحدى المجلّات البسيكولوجيّة... على كلٍّ، فلا فرق بين مرجع وآخر، القضيّة هزّت كياني وما زلت أذكر اسم تلك الابنة التعيسة التي

جاوز شقاؤها شقاء جرترود، إذ كانت عمياء وصمّاء وخرساء في آنٍ معاً، لمَّها أحد الأطبّاء من إحدى كونتيّات انكلترا، أواسط القرن المنصرم، وكان اسمها لورا بريدغمان. اعتمد هذا الطبيب، على غرار ما يتوجّب عليك عمله، مذكّرة لتسجيل ما كانت تحرزه الفتاة من تقدّم. وتوخّى في البداية، وقبل كلّ شيء آخر، تدوين نشاطاته التي شرع يبذلها في هذا السبيل. واستمرّ طوال أيّام وأسابيع يدعوها إلى لمس شيئين صغيرين، الواحد تلو الآخر، وهما دبّوس وقلم، ثمّ يحملها بالمقابل على لمس كلمتين انكليزيتين مطبوعتين على ورقة بحروف نافرة وتعنيان الدبّوس والقلم. وأمضى عدّة أسابيع دون أن يحصل على نتيجة. فكان يبدو جسمها وكأنّ لا بشر فيه. ومع ذلك لم يفقد أمله. وأخبر أنّه كان كمن انحنى على بئر عميقة ومظلمة ودلّى فيها حبلاً راح يحرّكه بكلّ قوّته، على رجاء أن تأتي يد في النهاية لتمسك به. لأنه لم يشكّ لحظة واحدة في وجود إنسانٍ في أعماق هذه اللجّة، وأنّه لا بدّ لتلك اليد أن تأتي أخيراً لالتقاطه. وذات يوم رأى وجه لورا المنقبض يشرق عن ابتسامة. فتصوّر موقف هذا الرجل: هل تخاله إلّا جاثياً على كلتا ركبتيه، يمجّد الربّ على صنيعه ودموع الشكر والحبّ تتفجّر من عينيه؟! أدركت لورا فجأة ما يبتغيه الطبيب منها ونجحت. ومنذ ذلك اليوم راحت تُعيره كل انتباهها وتتقدّم بخطى سريعة. واستطاعت على الأثر أن تثقّف نفسها بنفسها.

وأصبحت بعدئذٍ مديرة مؤسسة لمكفوفي البصر، وقد يكون غيرها شغل هذا المنصب.. فثمّة حالات كثيرة كهذه، حدثت في المدّة الأخيرة، وتنافست عليها المجلات والصحف، وتكلّمت عليها بإسهاب، مُبدية دهشتها بشيء من الحماقة، كما يبدو لي، لكون هذه المخلوقات استطاعت أن تصبح سعيدة. إنّه لواقع حصل، وكل شخص من هؤلاء بات ينعم بالسعادة. وعمد إلى الإفصاح عنها، وقبل أيّ أمر آخر، ساعة تهيّأ له ولأول مرّة، أن يعبّر عن أفكاره. وكان من الطبيعي أن ينذهل رجال الصحافة حيال هذا الحدث، وأن يعطوا منه درساً لأولئك الذين يتمتّعون بحواسهم الخمس ويجدون لديهم مجالاً للتذمّر...».

عند هذا، دار جدل بيني وبين مارتين، وكنتُ ضدّ تشاؤمه. ونفيت، بعدما خِلته من هذا الرأي، أن تؤدي الحواس في نهاية الحساب إلى القنوط.

فردّ معترضاً:

لا أفهم ذلك على هذا النحو الذي شئت أن تنسبه إليَّ. فجُلّ ما أقصد: أنّ نفس الإنسان تتصوّر الجمال والرخاء والانسجام بالسهولة والرضى، وتطلعنا على هذا العالم وتزوّدنا بالمعونة الكافية لكي تسهم فيه حواسّنا الخمس، بعكس الفوضى والخطيئة اللتين تذبلان كل مكان تحلاّن

فيه وتشوّهانه وتلطّخانه وتمزّقانه.

قال فرجيل: ما أسعد الناس لو وعُوا مصالحهم.

فأنا أُصحّح هذا الكلام وأقول:

ما أسعد هؤلاء لو قدّر لهم أن يجهلوا كلّ أثر للشرّ في ضمائرهم!

وراح بعد ذلك يحدّثني عن رواية لديكنز يعتقد أنّه استوحاها مباشرة من مثل لورا بريدغمان، ووعد بإرسالها إليّ. وهكذا تلقّيت بعد أربعة أيّام من هذه الزيارة كتاب «صرّار الموقد» الذي طالعته بشغف. وهو قصّة طويلة، ومثيرة أحياناً، لفتاة ضريرة كان والدها رجلاً معوزاً يملك مصنعاً للألعاب ودأب على إيهامها بالرفاه والثروة والسعادة لإلهائها عن واقعها. وجهد ديكنز بفنّه كي يجعل، من هذا، عملاً تقويّاً باراً لن ألجأ إلى مثله في معاملتي مع جرترود.

منذ اليوم التالي لزيارة مارتين، عمدت إلى تطبيق طريقته، وأكببت على تنفيذها بما كان في وسعي. وأسفت لكوني لم أشرع منذ البداية بتدوين ملاحظاتي عن أولى خطوات جرترود في هذه الطريق المظلمة، حيث باشرت عملي بعيداً عن كل قاعدة منظّمة. كلّفني هذا الخطأ الكثير من الجلد وأكثر ممّا كنت أتوقع، خلال الأسابيع الأولى من بدء حكايتي. وليس ذلك كلّه بسبب طول الوقت الذي فرضته هذه التربية

وحسب، بل أيضاً من جراء الانتقادات التي تعّرضت لها، وكان مصدرها ويا للأسف: زوجتي. جئت على ذكر هذا الأمر ههنا، لأنّي لم أحفظ في قلبي أيّ أثر للضغينة ولا أيّ شيء آخر من الامتعاض تجاه هذا الموقف. وأترك كلامي هذا على سبيل الشهادة إلى سَاعة يتسنّى لها الاطّلاع عليه. (أوَلم يعلّمنا المسيح وجوب التغاضي عن الإهانات التي توجّه إلينا ومسامحة فاعِليها؟) وسأذهب بكلامي إلى ما هو أبعد لأعلن أنّني لم أؤاخذ زوجتي مرّة واحدة على شجبها خدماتي لجرترود حتى في أعنف حالات انتقادها، وإنّما كنت ألومها بالأحرى على عدم ثقتها بنجاح مسَاعيّ. فهذا النقص في إيمانها هو ما كان يحزّ في قلبي، على أنّه لم يقوَ لحظة واحدة على إحباط عزيمتي. وكم من مرّة سمعتها تردّد: «ليت عملك يؤدّي يوماً إلى نتيجة...» واستمرّت في عنادها، مقتنعة بأنّ أتعابي سدىً. وكان يظهر لها، والحالة هذه، من غير المناسب أن أكرّس لهذه العملية وقتاً يصلح في كلّ زمن لعملٍ آخر أجدى. وكلّما رأتني أعمل لجرترود كانت تعتبرني كمن يجهل الذي ينتظر بعد هذا المجهود، وأنني كنت أهدر من أجل هذه الفتاة وقتاً كان عليّ إعطاؤه للآخرين، حتى غدوت أظنّ في آخر المطاف أنّ عاملاً من الغيرة وراء نقمتها، إذ سمعتها تندّد مراراً: «لم يسبق لك أن اعتنيت إلى هذا الحد بولد من أولادك». أجل، هذا الأمر صحيح ولا مجال لإنكاره، فأنا أُحبّ أولادي حبّاً جمّاً، إلاّ أنّهم لم

يضطروني يوماً إلى بذل المزيد من العناية بهم كما الحال مع جرترود.

لاحظت، بعد الذي جرى، أنّ مَثَل الشاة الضالّة يبقى أحد الأمور الشاقّة التي لا تُقبل بالسهولة حتى لدى جماعات تخال نفسها عريقة في مسيحيّتها. لذلك يصعب على هؤلاء أن يرتفعوا، أعلى، لكي يفهموا أنّ انفصال الشاة عن قطيعها يجعلها في عيني راعيها أثمن من باقي القطيع في مجموعه. «إذ كان لأحدهم مئة شاة، وحدث أن ضلّت إحداها عن القطيع، ألا يترك هذا الرجل غنماته التسع والتسعين الباقية تسرح في الجبال منفردة ويذهب في طلب تلك التي ضلّت؟» قد يرى بعضهم في هذه العبارات المشرقة بالمحبّة، ثورة صاخبة وانحرافاً عن الحق جائراً، لو قدّر لهم أن يبدوا رأيهم بحرية فيها وتجاسروا.

أُولى بسمات جرترود كانت تعوّضني كلّ أتعابي وتردّ إليّ المثقال مئة. «الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ هذه الشاة إذا ما التقاها راعيها ففرحه بها يفوق فرحه بالتسع والتسعين شاة الباقية التي لم يكن فقدها».

وهكذا أنا: لم أحسّ قط في بسمات أولادي ما يغمر قلبي بفرح سماوي كالذي رأيته ذات صباح من وجه هذا الصنم، بعدما أخذ يفهمني ويهتم لما كنت أبذل في سبيل تلقينه إيّاه منذ أمدٍ طويل.

جرى هذا في الخامس من آذار. وسجّلته كما تسجّل تواريخ الولادة. لم تكن بسمتها عادية كسائر البسمات بل تجلّياً. انتعشت قسماتها في لحظة لم أكن أنتظرها وحدث ما يشبه الإشراق المفاجىء كما الضوء الأرجواني الذي يسبق الفجر في مرتفعات الألب ويحرّك قممها الثلجيّة ويخرجها من ليلها. لاح كما تلوين روحانيّ؛ وفكّرت إذّاك في بركة بتسدا، لحظة كان ملاك الرب ينزل ويوقظ مياهها الراكدة. ووجدتُني في شبه اختطاف أمام ذلك المظهر الملائكي اتخذته جرترود فجأة. ظهر لي أنّ ما بدا عليها لم يكن إدراكاً بقدر ما كان حبّاً. ورفعتني هذه البادرة إلى اعتبار قبلتي على جبينها الجميل تقدمة شكر منّي إلى الله.

وبقدر تلك الصعوبة التي واجهتها لبلوغ هذه النتيجة الأولى، أصبح تقدمها سريعاً. وإنّي أبذل جهدي اليوم لكي أتذكر الطرق التي سلكناها من قبل. ويلوح لي أنّ جرترود شرعت تتقدّم بوثبات وكأنّها تهزأ بالأساليب. ولن أنسى أنّني أصررتُ في البداية على صفات الأشياء أكثر من إصرازي على تنوّعها: كالحارّ مثلاً، والبارد والفاتر والحلو والمرّ والخشن والطريّ والخفيف... ثمّ عمدت بعدها إلى الحركات: كالإبعاد والتقريب والرفع والتقاطع والتمديد والعقد والبعثرة والتجميع، إلخ. بعدها أهملتُ كل طريقة، ورحت أحدّثها،

قليـل الاكتراث بمدى انتباهها إليّ؛ أُعالجها ببطء؛ وأدعوها إلى طرح الأسئلة ساعة تشاء وأُحملها على ذلك أحياناً. وكان عقلها يعمل ولا شكّ كلما أتركها منفردة، لأنّني كنت ألتقيها في كل مرّة مع مفاجأة جديدة، وأشعر بانحلال الليل الذي يفصلني عنها. وشبّهتها بحكاية الربيع وتغلّبه على الشتاء شيئاً فشيئاً، بفضل صموده وفتور هوائه. وكم مرّة تأمّلت بالذهول مسيرة الثلج في ذوبانه: كالرداء يهترىء من الباطن ويبقى على سلامة مظهره. وتثير هذه المشاهد فضول زوجتي كل شتاء، وتحملها على سؤالي على الثلج وكيف يحافظ على شكله الخارجي، وهو يلوح لنا كثيفاً ثم نراه بعد حين يرضخ لناموس الطبيعـة، ويفسح لظهور الحياة مجدّداً في مكان وفي آخر.

وإذ كنت أخاف على جرترود من الذبول بملازمة المـوقد كالعجائز، عمدت إلى إخراجها من البيت؛ غير أنها لم تكن توافق على هذا إلّا وهي مستندة إلى زندي. وفهمت عبر ذينيك الذهول والخوف استحوذا عليها في بداية التجربة، وقبل أن تعي قوله لي، أنها لم تكن تركته مرّة من قبل. وفي الكوخ، حيث وجدتها، لم يكن إنسان يعتني بها إلّا ليقدّم لها الطعام، لا لكي يمدّها بسبُل الحياة لتعيش، كما يبدو لي وأجسر على إعلانه. وظلّ عالمها، ضمن جدران تلك الحجرة التي لازمتها ولم تفارقها قطّ. وقد تكون تتمشى فيها أحياناً خلال أيّـام

الصيف وتبلغ جوار الباب عندما يترك مفتوحاً على رحابة الكون المنوّر. وقصّت عليَّ في ما بعد أنها كانت تتصوّر زقزقة العصافير من عمل النور، وهكذا الحرارة التي كانت تداعب خدّيها ويديها. وظهر لها طبيعياً، ودون تفكير، أن يسخن الهواء كما الماء وهو إلى جانب النار. والخلاصة أنها لم تكن تكترث لمثل هذه الأشياء أو تأبه لقضية، بل تعيش في خدر عميق حتّى يوم أخذتها على عاتقي. أمحو من مخيّلتي تلك الدهشة البالغة أبدتها ساعة أفهمتها بأنّ هذه الأصوات تسمعها، تصدر عن كائنات حيّة ينحصر دورها في تحسّس جمال الطبيعة الموزّع هنا وهناك وفي التعبير عنه. (واعتادت منذ ذلك الحين قول العبارة التالية تكراراً: «إنني في غبطة العصافير»). ومع ذلك أحزنتها هذه الأغاريد وهي تفصِح عن بهاء مشاهد لا يمكنها تأمّلها.

فَسَألتني: هل صحيح أنّ الأرض جميلة كما تخبر هذه الطيور؟ ولماذا لا تفسّره بشكل أعمّ وأوسع؟ أو لماذا لا تقوله أنت لي؟ لعلّك تخشى أن تسبّب لي اكتئاباً كونك تعلم عجزي عن رؤيته؟ تكون على خطأ، فإنّني أصغي جيّداً إلى هذه الكائنات وأخالني أفهم كل ما تقوله في أصواتها.

فقلت وأنا أتوخّى تعزيتها: «الذين يبصرون لا يستطيعون أن يسمعوها بالقوّة التي تحسّينها أنتِ، يا عزيزتي».

فأضافت: «ولماذا لا تغرّد باقي الحيوانات»؟. غدت أسئلتها

مثار حيرتي أحياناً، وكنت أمكث حِيالها بعض الوقت مرتبكاً إذ أصبحتْ تحملني على التفكير في ما كنت حتى هذه الساعة أتقبّله بسهولة، ودون أن يثير اهتمامي. وهكذا قدّرت، ولأوّل مرّة، أنّ بهجة الحيوان نسبيّة، وأن كآبته بقدر التصاقه بالأرض وثقل جسمه. ورحت أعمل على إفهامها هذا الواقع، فأنتقل من بعده إلى التحدّث إليها عن السنجاب وألعابه.

ثمّ سألتني إذا كانت حيوانات أخرى تطير، أو أنّ ذلك يُحصَر بالطيور دون سواها.

فقلت: والفَرَاش هو كذلك يطير.

قالت: ويغرّد مثلها؟

قلت: له طريقته الخاصة والمختلفة في التعبير عن فرحه، وهي مرسومة على أجنحته. وأخذتُ بعد ذلك أصف لها تنوّع الألوان في جسم الفراش.

٢٨ شباط

لا بدّ لي من العودة قليلاً إلى الوراء بعد استرسالي أمس في سرد أخباري المطوّلة.

اضطررت إلى أن ألمّ بأحرفية العميان لكي أستطيع تعليم جرترود مبادىء القراءة. ولم يمضِ بعض الوقت حتى رأيتها تسبقني في هذا المضمار ويظلّ إلمامي بهذه اللغة بدائيّاً، لأنني تابعتها بالنظر، بخلاف ما هو مفروض: عن طريق اللمس باليدين. لم أكن وحدي في هذه المهمّة، بل ساعدني فيها بعضهم وأسهموا إلى جانبي في تعليم الفتاة. فأشغالي كثيرة في هذه المنطقة، وثمّة عدد من المرضى والمعوزين عليّ أن أتفقدهم بين الحين والآخر، وزيارتهم شاقّة تقتضيني القيام بمسيرات طويلة، لأن البيوت تتوزّع هنا وهناك، وعلى مسافات بعيدة. عدا أعبائي العائلية والمستجدّ منها، كما كسر ذراع جاك بالتزلّج أثناء عطلة الميلاد قضاها بيننا، ثم تردّده القسري إلى مدينة لوزان بسبب دراسته فيها، خلال مرحلته الأولى ومرحلته الحالية حيث هو اليوم طالب كلّية اللاهوت فيها. لم يكن

الكسر خطيراً، واستطاع الدكتور مارتين، إذ استدعيته على الفور، إجراء عمليّة التجبير دون اللجوء إلى طبيب جرّاح؛ واضطّر جاك، احتياطاً إلى ملازمة البيت بعض الوقت. فأخذ يهتمّ بجرترود على غير عادته، بعدما ظلّ يتناساها حتئذٍ وراح يساعدني على تعليمها القراءة. ولم تطل مساعدته إلا ثلاثة أسابيع، مدّة نقاهته. إلاّ أنها كانت مُثمِرة، أحرزت خلالها الفتاة تقدّماً ملموساً، وباتت شديدة الحرص على التقدّم. ولاح لي أنّ هذا الذكاء الذي طالما غمره الخدر، أخذ يعود منذ خطوته الأولى، وقبل أن يتهيّأ له الوقوف على قدميه ويسير. وغدوت معجباً بالسهولة التي باتت جرترود تُظهِرها في تجميع أفكارها وبما آلت إليه من قوّة التعبير عمّا في ذهنها بطريقة صحيحة، بعيدة عن طرق الأولاد، وبشكل لذيد لم نكن قطّ ننتظر حدوثه: ترتكز في تصوّر الفكرة على الأشياء التي تعلّمتها، أو كنّا تحدّثنا إليها عنها، أو وصفناها لها عند تعذّر وضعها في متناول يدها. ودأبنا في عملنا على الأشياء الملموسة والمحسوسة لكي نشرح لها عبر هذه، كلّ ما لم يتوافر لها إدراكه.

لا أجد حاجة بي لكي أُشير ههنا إلى كل المراحل الأولى، اجتزناها في عمليّة تثقيف جرترود، فهي، ولا شك، قائمة في كلّ عملية أخرى من هذه النوع تتعلق بتعليم العميان وتبذل

في هذا السبيل. ويلوح لي أن قضيّة الألوان هي قضيّة كل ضرير، وأن الارتباك الذي يعاني منه مطلق معلّم حيال هذه المشكلة، يبقى إيّاه لدى سائر المعلمين، ويشملهم على السواء. (وفي هذا الصدد بحثت مطوّلاً في الإنجيل ولم أجد فيه ذكراً للألوان). لا أستطيع معرفة الطرق التي تطرّق إليها غيري على هذا الصعيد. أمّا أنا فباشرت عملي ابتداء من ألوان الموشور البلّوري، ووفقاً للترتيب البادي في قوس قزح. والتبس هذا الأمر على جرترود، وزاغت بين اللون والضوء. وبان لي أن مخيّلتها عاجزة عن التمييز بين نوعيّة اللون وبين ما نعرفه «بالقَدْر» في لغة المصورين. وكان يستعصي عليها إدراك أهليّة هذه الألوان لأن تصفو أو لأن تعتم على مستويات مختلفة، وأن تمتزج بينها إلى ما لا نهاية له. وأثار هذا الموضوع فضولها، إلى حدّ بعيد، وراحت تعود إلى مناقشته دون انقطاع.

قيّض لي أن أصطحبها يوماً إلى نوشاتيل حيث استمعت معي إلى حفلة موسيقية. فاتخذتُ إذّاك من كلّ آلة في مجموعة السيمفونيا، ذريعة لي للعودة بها إلى قصّة الألوان. وطلبت إليها أن تلاحظ بدقّة كل الفرق الذي يبدو لها بين رنّانية الآلات النحاسية وتلك التي تصدر عن آلات الأوتار والخشب. وقلت لها إنّ كل آلة منها مؤهّلة بحسب نوعها لأن تعطي كل درجات الصوت وبكثافة مختلفة، من أدناها انخفاضاً إلى

أعلاها حدّة. ودعوتها إلى تشخيص ألوان الطبيعة على هذا النحو، كأن تشبّه الأحمر والبرتقالي بأصوات الأبواق والترمبون، وأن تتمثّل الأصفر منها والأخضر برنّانية الكمان والفولونسيل والجهير، والبنفسجي والأزرق بالشبّابة والكلادينات والمزمار. وأحسستُ إذّاك شيئاً من الاختطاف احتلّ نفسها وأخذ يبدّد منها شكوكها. فردَّدَت:

يا لجمال ما ذكرت!

ثم أضافت:

ـ والأبيض، ما عساه يعني لنا؟ أو ما يكون الشيء الذي أستطيع نسبته إليه؟

أدركت على الفور مدى ضعف مقارناتي، فقلت لها:

الأبيض هو الحدّ الفاصل تتلاشى عنده جميع الألوان الحادّة، وكذلك الأسود، فهو حدّها القاتم. إلّا أنّ هذه المقارنة لم تكن لترضيني أو تشبع فضول محدّثتي، فراحت تشير إلى الفرق الذي تحسّه هي بين الآلات الخشبيّة والنحاسية والكمان. فكل منها يتميّز عن الآخر في جميع الأصوات، في العالي منها والمنخفض. وهكذا رأيتني في مرّات أخرى كثيرة، كهذه التي أشير إليها، مضطراً إلى التزام السكون بعض الوقت بسبب ارتباكي الشديد ولحاجتي إلى التفكير بمقارنة أخرى ألجأ إليها.

فقلت لها:

تصوّري الأبيض شيئاً في منتهى النقاوة، خلا من كل لونٍ آخر إلاّ من النور، والأسود، بعكسه، تخيّليه جسماً أثقلته الألوان الأخرى وأظلمته.

إن كنتُ أتيتُ على ذكر هذا الحديث المختصر، وهو قليل من كثير فَلِكَيْ أُشير إلى تلك الصعوبات التي كنت اصطدم بها. كانت جرترود تتظاهر دائماً بعدم الفهم، وهي أشبه بأولئك الذين يملأون أدمغتهم بمعطيات مبهمة أو مغلوطة فتعطّل لديه كل عمليّة للتحليل. وغَدت منذ ذلك الوقت تغتمّ وتتضايق كلّما عرضت لها عارضة فوق إدراكها، ولم تستطع أن تكوّن عنها فكرة واضحة.

وانطلاقاً ممّا سبق، قاسيت الكثير لإيضاح ماهيّة النور والحرارة، وإفهامها الفارق بين هذين الكيانين إذ كانا في مفهومها ملتصقين التصاقاً يصعب من خلاله التمييز بينهما.

وهكذا عرفت بفضل تلك الاختبارات التي توافرت لي تباعاً عبر هذه الفتاة، مدى اختلاف عالم البصر عن عالم الأصوات، وعجز كل مقارنة يجريها بين هذا وذاك، عن تحقيق ما نرمي إليه لبيان أحدها من خلال ما نعطيه عن الآخر.

٢٩ شباط

أُلهتني مقارناتي الأخيرة عن التنويه بالسرور الذي غمر قلب جرترود في حفلة نوشاتيل، عُزِفَت فيها، تحديداً، «السمفونيا الراعوية»، وهي غاية ما تمنّيت أن تسمعه الفتاة، إذ لا معزوفة أخرى من شأنها توفير المناخ الذي أرتجيه لها. لهذا، أشرتُ وقلتُ «تحديداً». وصمتت جرترود إثر الحفلة ولزمت بعدها الصمت طويلاً كأنها تغرق في دنيا من الرؤى.

ثم سَألتني:
هل يمكن أن تكون الأشياء التي تبصرها بمثل هذا الجمال؟
فقلت: وأيّ جمال تعنين، يا عزيزتي؟
ـ جمال المقطع الذي سمعناه من معزوفة «على ضفاف الساقية».

لم أشأ أن أُجيبها عن سؤالها في الحال، إذ استدركت أنّ هذه الألحان التي تفوق بسموّها كلّ وصف، لا تصوّر لنا عالمنا على حقيقته بقدر ما تصوّره على الشكل الذي نودّه، أو على ما يمكن أن يكون عليه لو خلا من الشر والخطيئة. وكنت حتّى

هذه الساعة لم أجسُر بعد أن أتفوّه أمامها بما يشير إلى ذكر الشر والخطيئة والموت.

فقلت لها: الذين يتمتّعون بحاسة البصر لا يدركون سعادتهم.

فهتفت إذّاك،

ـ لكنّني أحسّ بهجة ما أسمع، وأنا الكفيفة.

وراحت تشدّ نفسها إليّ طوال مسيرتنا، وتضغط ذراعي كما الصغار، وقالت:

ـ هل تشعر، أيّها القسّ، بمدى سَعادتي التي أعيشها الآن؟ لا، لست أُصرّح لك بذلك على سبيل الملاطفة، أو لكي أجلب لك بعض السرور. انظر إليّ وتفحصني جيّداً. فالحقيقة يجب أن نلاحظها على وجه قائلها، والكذب كذلك يجب ألاّ يخفى. وأنا أحسّ هذا جيّداً في نبرات الصوت الذي أسمعه. فهلاّ ذكرت في هذا المناسبة، يوم راحت العمّة (وتعني بها زوجتي) توجّه إليك بعض قوارص الكلام كونك تهملها، ممّا حملك على البكاء، وحملني أنا على سؤالك ما إذا كنت تبكي. نفيتَ هذا الأمر. فصحتُ بك: «إنّك تكذب، أيّها القسّ» أدركت فوراً يومها، ومن خلال صوتك، أنّك لم تكن تقول الحقيقة. ولم أكن قطّ في حاجة إلى برهان، وإلى جسّ خدّيك لكي يتأكد لي أنّك كنت تبكي. ثمّ أخَذَتْ تردّد بصوت

مرتفع: «لا، لم تكن بي حاجة إلى شيء من هذا، لكي أعرف» فأخجلني هذا الكلام تقوله بحدّة، ونحن ما زلنا في شوارع المدينة، والناس يعودون إلى بيوتهم وقد يسمعوننا، وأضافت:

يجب ألاّ تسعى بعد الآن إلى إيهامي. من المخجل أن يعمل إنسان على خداع عمياء... وهذا بالتالي عديم الجدوى، ولا يلتبس عليّ إدراكه. ثم راحت تضحك على الأثر وهي تقول: والآن كن صريحاً وقل لي إذا كنت تشك مما يكدّر عليك عيشك، وإن أنت تعيس.

أدنيت يدها من فمي لكي أُشعرها، بغير لغة الكلام، أنّ قسطاً من سعادتي، أستمدّه من وجودها بيننا، ثمّ أجبت:

لا، يا جرترود، لست تعيساً كما تتوهّمين، ولماذا أكون كذلك؟

ـ لكنّه سبق لي ورأيتك تبكي بعض الأحيان، فلأي سبب كان هذا البكاء؟

ـ حصل مثل هذا سابقاً، ولا سبيل إلى إنكاره؛ ولجأت إليه أكثر من مرّة.

ـ يعني أنّك كففت عنه منذ صارحتك به.

ـ أجل، منذ تلك الساعة تماماً.

ـ هل تشعر اليوم بميل إلى تكراره؟
ـ لا، يا جرترود.
ـ كن صريحاً، وقل إذا حدث لك بعد تلك المصارحة، وشعرت بميل إلى إخفاء الحقيقة وقول الكذب.
ـ لا، يا عزيزتي.
ـ هل تعدني بالتزام الصدق بعد الآن، وأنّك لن تسعى يوماً إلى خداعي.
ـ أُقسم.
ـ إذا كان هذا استعدادك فأعلمني على الفور إذا كنت جميلة.

أوقعني هذا السؤال المباغت في حيرة بالغة. وكنت حتّى هذه الساعة لم أعِر هذا الموضوع أيّ اهتمام برغم ما هي عليه من جمال، ولم أشعر لحظة واحدة بحاجة إلى إيقافها على حقيقة ما تطلب، فقلت لها:

ـ ماذا يهمّك من هذا الأمر، إن عرفته أو جهلته؟
ـ إنّه كل اهتمامي، لأنّني أرغب في معرفة نفسي على حالها، وإذا كنت على نشاز مع ألحان السمفونيا. وإلى من غيرك من النّاس تريدين أن أتوجّه بمثل هذا السؤال كي أعرف؟

وإذا وجدتني في موقف الدفاع عن النفس، أردفتُ:
ـ القساوسة لا يهتمّون لجمال الوجه.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يكتفون بجمال النفس.

ـ تتصرّف كمن يضطرّني إلى تحسّس بشاعتي بنفسي. ثمّ بادرت منها برطمة محبّبة حملتني على الجواب، فصرخت بها:

ـ لا أخالك إلا تعرفين جيّداً أنّك جميلة، يا جرترود.

فصمتت عند هذا الكلام، واتّخذ وجههـا بعض إمارات الرزانة واحتفظت بها حتى عودتنا إلى البيت.

حال وصولنا، عمدت آميلي إلى إشعاري بعدم رضاها عن تصرّفي طوال هذا اليوم. وكان باستطاعتها أن تلفتني إلى ذلك قبل ذهابي. إنما تركتني أنصرف دون أن تتلفّظ بما ينمّ عن ممانعتها حول هذه الرغبة شأنها كلّ مرّة، عوّدتني ألّا تعترض على أمرٍ إلّا بعد قيامي به لكي يتسنّى لها، بعدها، أن تندّد وتلوم. على كلّ، لم توجّه إليّ ملامة بالمعنى المقصود إلّا ما تحسّسته أنا من خلال صمتها. أو لم يكن عليها أن تسأل عمّا سمعناه في هذه الحفلة بعدما عرفت أنّني أخذت جرترود لحضورها؛ كان جديراً بها إرضاء هذه الفتاة بإبداء مثل هذا الموقف المشجّع، لتفهم منه أنّنا مهتمون بها وبما يوفّر لها السرور. لكن آميلي لم تلزم الصمت، وكلامها ظلّ بعيداً عن موضوع الحفلة ودار حول أشياء لا تمتّ إليها بصلة. وأرجأت

أنا كلّ حديث مع زوجتي في هذا الشأن، في المساء وإلى ما بعد رقاد أولادي، فسألتها بحدّة:

ـ أغاظك، ولا شكّ، أن أصطحب جرترود إلى الحفلة.

فقالت: كيف لا وأنت تعمل في سبيلها ما لا تعمل في سبيل أيّ شخص من أفراد عائلتك.

شكواها هذه، على غرار سابقاتها، لا تتعدّى ما كانت تنسبه إليّ في الماضي. فهي مصرّة على رفضها ولا تريد أن تفهم مغزى عملي. وأنني أقيم، وَفقاً لمُثل السيد المسيح، عيداً لهذه التي كانت ضالّة، لا للّذين ما زالوا بيننا. أشقاني هذا الموقف المتصلّب تجاه جرترود، وتناسيها إعاقة هذه الفتاة التي لا أمل لها بِعيد آخر غير الذي قمنا به في هذا النهار. وملامتها جائرة وفي غير محلّها، ولا سيّما وهي تعرف أن لكلّ ولد من أولادنا شغله الخاص الذي يحول دون حضوره هذه الحفلة، وأنها هي بدورها لا تتذوّق الموسيقى. ولا أخالها تهتمّ لمثل هذا الأمر أو تقبل بحضور حفلة من هذا النوع حتى في حال فراغها من كلّ عمل، أو قيام هذه الحفلة عند باب منزلنا. وشاءت العناية الإلهية أن أكون عاطلاً عن العمل طوال ذلك اليوم بـرغم مهامي التي لا تحصى.

وممّا زاد في إيلامي: إقدامها على التفوّه بهذا الكلام على

مسمع من جرترود، بعدما أخذتها على حدة لتحاشي حدوثه، إلّا أنها جهرت به بصوت مرتفع وأمكنت الفتاة من سماعها. لم يكن أسفي لما جرى بقدر سخطي ونقمتي. وعند انصرافها، دنوت من جرترود وأخذت يَدَها النحيلة، وحملتها إلى وجهي وقلت:

ـ أترين أنني لم أبكِ هذه المرّة؟

فقالت:

ـ لا، لم تبكِ، ولكنّ هذا بات من حقّي أنا في هذه المرّة. وجهدَت كي تتصنع الابتسام، غير أنها لم تقوَ على امتلاك نفسها؛ وعندما أدارت وجهَها نحوي، رأيتُه غمرته الدموع.

٨ آذار

لا أعتقد أنّ في استطاعتي إرضاء زوجتي إلّا بإحجامي عن تعاطي ما لا يروقها. فهي لا تسمح من الأعمال بسوى السلبيات. ضيّقت عليّ حلقة حياتي وتوغلت في غيّها، عاجزة عن إدراك هذا الواقع. وكم تمنّيت على الله لو كلّفتني بعض الأعمال الشاقّة التي تتطلب المجازفة، حتى أباشرها بكل اغتباط، وبرغم خطورتها. ويظهر أنّها تنفر من كلّ جديد، غير اعتيادي. والنجاح في نظرها، يقوم على أشغال رتيبة لتتوالى مع الأيّام. كذلك يسوؤها أن أمارس بعض الفضائل التي لم تألفها بعد، أو أن أنمّي في ذاتي تلك التي مارستها من قبل. والجهود التي تبذلها النفس، لكي ترى ما في المسيحية مما يتعدى إخضاع الغرائز، هي، لديها، جهود مزعجة ومرفوضة أحياناً.

طلبَتْ إليَّ مرّةً قبيل ذهابي إلى نوشاتيل، تسديد حسابنا مع حد تجّارها، ومشترى صندوقة من الخيوط. وفاتني، سهواً، ضاء هذه الحاجة. فكان اغتياظي من نفسي على أشدّه، ولعلّه ناوز حدود اغتياظها، بعدما رأيتني أخلف بوعدي، لكون

الأمانة واجبة في الشؤون التافهة والمهمة معاً. ولأنني أخشى النتيجة التي ننتهي إليها من جرّاء هذا الإهمال. ووددت لو أنّها أسمعتني بعض الملامة، إذ كانت على حقّ فيها وأنا على خطأ. غير أنّها لم تفعل. فشكواها مني تقوم غالباً على أخطاء من نسيج خيالها وتنسبها إليّ زوراً، لا على التي تصدر بالفعل عني. ربّاه! لكم كانت الحياة جميلة والشقاء أخفّ لو قُدِّر للناس أن يكتفوا برؤية صعابهم في حقيقتها وحسب، وأهملوا تلك التي تصوّرها لهم النفس من الأوهام وكأنّها أهوال رهيبة... ويحضرني هنا ما جاء في إنجيل متّى في الفصل الثاني عشر الفقرة التاسعة والعشرين: «يجب ألّا تقلقوا لشيء». فهذه العبارة، مع صغر حجمها تصلح لأن تكون عظة كاملة. وهي حكايتي مع جرترود في عمليّة إنمائها العقليّ والخلقيّ، ما أتوخاه في كلامي التالي إذ أعود إليها:

كنت آمل أن أتتبّع هذا الإنماء خطوة خطوة بعدما كنت باشرته بتفاصيله. إلا أنّ ضيق الوقت لا يسمح لي بأن أشير دقيقاً إلى كل مراحله، لأنّه من الصعوبة أن ألمّ بسلسة هذه العملية وفق سياق حصولها. وإذ أقدمت على سرد حكايتي، عمدت أوّلاً إلى الكلام عن أفكار جرترود وأحاديثي معها، بدءاً من أقربها تاريخاً. وقد يدهش قارئي، إذا ما طالعني يوماً، لكون هذه الفتاة تمكَّنَتْ، في مدة قصيرة، أن تُفصِح عن

أفكارها بإحكام وتعلّل الأشياء بنباهة. جرى تقدّمها بسرعة مذهلة. وكثيراً ما راعتني سهولتها في استيعاب غذائها العقلي أدنيه منها. واستطاعت صهر كل ما يتصل بها، بطابعها الشخصي، وبعمل متواصل من التمثّل الذهني والنضج. وكانت تفاجئني وتسبق تفكيري دائماً وتجاوزه، وتظهر بين الحديث والآخر وكأنها غير الشخص الذي حادثته قبل لحظة.

وأخذت أشعر بعد أشهر وكأنّ ذكاءها لم ينغلق في المدة الطويلة التي سبقت. أصبحت تظهر من الفطنة ما لا يتوافر لأكثر الفتيات من اللواتي يلهيهنّ عالمنا الخارجي وتعطّل انتباههنّ مشاغل تافهة. ولاحظتُ أنّها أكبر سنّاً ممّا اعتقدناه في البداية. كما رأيت أنّها تستغلّ عماها أحياناً لغاية في نفسها. وكثيراً ما حملتني على الشك في صحّة مواقفها وإذا ما كانت لها فيها بعض المآرب. وكنت بالرغم منّي أشبّهها بشارلوت عندما كانت تضطرني هذه إلى حملها على ترداد دروسها أمامي، في ساعات لهوها، ولمجرد رؤية ذبابة تمرّ أمام ناظريها إذ كنت أقول: «كم كان انتباهها أحسن وأفضل لو لم تكن ترى».

لا أجد ما يحدوني على التنويه بإقبال جرترود على المطالعة ة زائدة. فكنت أفضّل ألّا تتعاطاها إلى مثل هذا الحدّ، أو علها تحت إشرافي، خاصة ما اختصّ منها بقراءة التوراة، حتى أظلّ دائماً رفيق أفكارها. وسآتي لاحقاً على تعليل

ذلك. إلاّ أنني أفضّل، قبل إيراد هذا الأمر الهامّ، أن أُشير إلى نقطة صغيرة لها علاقة بالموسيقى حدثت في حفلة نوشاتيل، قبل ثلاثة أسابيع من عطلة الصيف وعودة جاك إلينا. وكنت بين الحين والآخر أجلس جرترود أمام الأرمونيوم الصغير في كنيستنا الصغيرة، تتعهده غالباً الآنسة دي لا م.. التي تقيم جرترود حاليّاً في منزلها، ولم تكن بعد باشرت تعليم جرترود مبادىء الموسيقى.

بالرغم من تذوّقي هذا الفن، لا أُلِمّ به إلاّ قليلاً، ولم أكن أحسّ في نفسي الكفاءة اللازمة لكي ألقّن هذه الفتاة مبادئه، عندما كنت أجلس بالقرب منها وأمام ملامس الآلة.

طلبت إليّ منذ اللحظات الأولى من هذه المحاولة أن أتركها وشأنها لأنّها تفضّل القيام بهذا العمل منفردة.

وكنت أتركها وحدها برضاي، حتى لا نكون معاً في هذه الكنيسة، أوّلاً احتراماً منّي لقدسية المكان وبالتالي تجنّباً لأيّ لغط، مع أنني لا أعلّق أهميّة على ذلك، إنما يتعداني ليشمل جرترود. وفي كل مرّة كانت طريقي من هذه الناحية كنت أصطحبها معي حتّى باب الكنيسة، وأتركها فيها ساعات طويلة، ثم أعود لآخذها لدى عودتي. وهكذا كانت تعمل بأناة لتكتشف الأنغام في تناسقها. وكنت ألتقيها قبيل المساء وهي

تصغي لبعض الألحان وتغرق في انذهال طويل.

حدث في أوائل آب، قبل ستة أشهر من هذا التاريخ، أن ذهبتُ يوماً في زيارة لإحدى الأرامل معزّياً. وإذ لم أجدها عدت توّاً إلى الكنيسة لملاقاة جرترود حيث كنت تركتها وحدها. لم تكن تنتظر عودتي بهذه السرعة. وكم كانت دهشتي كبيرة إذ باغتني وجود جاك معها. لم يشعر أحد بوصولي، لأن صوت الأرغن أخفى عنهما وقعَ أقدامي. ليس من طبيعتي أن أراقب الناس في تصرّفهم، إلّا أنني شديد الاهتمام بكل ما يتعلّق بجرترود. وهكذا خفّفت سيري وصعدت خلسة، عبر الدرج، إلى الرواق، أفضل مكان للمراقبة. وطوال الوقت أمضيته فيه، لم أسمع من أحدهما كلاماً يُوجّه إلى الآخر. غير أن جاك كان حدّها ويمسك بيدها في أحيان كثيرة ويدني أصابعها من الملامس. استغربت حقّاً موقف جرترود، كيف قبلت بمثل هذه المساعدة تأتيها من جاك بعدما سبق ورفضتها مني. كانت دهشتي أكبر واغتمامي على أشدّه، وفوق ما يمكن ن أتصوّره في قرارة نفسي، عندما كنت على وشك إعلان جودي فرأيت جاك ينظر فجأة إلى ساعته ويقول:

ـ آن رحيلي لأنّ أبي لن يلبث أن يعود.

ورأيته يأخذ يدها إلى شفتيه دون أن يلقى منها اعتراضاً، م يذهب في طريقه. نزلت من الرواق، وفتحت باب الكنيسة

بشكل يتيح لها أن تسمعني، فتعتبر أني الآن واصل إليها. وقلت لها:

ـ مرحباً يا جرترود. أوَلا تودّين العودة إلى المنزل؟ عساك أحسنت العزف على آلتك.

قالت: أجل، وكل شيء سار على ما يرام. حقّقت اليوم بعض النجاح. قالت هذا وكانت نبرات صوتها طبيعيّة، لا جديد فيها.

وشعرت بالاغتمام يملأ قلبي. ولم تبدر من أحدنا إشارة إلى ما حدث.

كنت أنتظر التقائي بجاك على حدة. وكان من عادة زوجتي وجرترود والأولاد أن ينصرفوا بعدِ العشاء ليتركوني وجاك نسهَر حتى ساعة متأخّرة. كنت في انتظار هذه الفرصة. ولكنني شعرت، قبيل إقدامي على الكلام، بما يعتصر قلبي ويهزّ مشاعري عنيفاً فبتُّ عاجزاً عن إثارة هذا الموضوع المؤلم، ولا أجسر على الإقدام عليه. وكان جاك أوّل من قطع علينا صمتنا إذ بادر إلى إعلان رغبته في قضاء العطلة بيننا. وكان لأيام قليلة خلت، كلّمنا على مشروع رحلة يقوم بها إلى الألب. وكنت أنا وأمّه وافقنا عليها بالرضى التّام، وصديقي ت... ينتظره بعد اختياره رفيقاً له في الرحلة، كذلك ظهر من

البديهي أنّ لهذا التبدّل المفاجيء علاقة بالحدث الذي ذكرتُه فأحسستُ في الحال بشيء من النقمة يتملّكني، إلّا أنني تجلّدت وكظمت غيظي حتى لا أسترسل في الكلام فينغلق ابني عليّ إلى الأبد، إذ أسمِعه عبارات قاسية قد أندم عليها. فتكلّفت الاتّزان، وقلت:

أُقدّر أنّ ت... ما زال على عهده معك بالنسبة إلى الرحلة.

فأجاب: لا، لا أخاله متمسكاً بها إلى هذا الحدّ. على كلٍّ، ليس ما يضيره إذا ما اختار له رفيقاً آخر. فأسباب الراحة تتوافر لي هنا أكثر ممّا في الأوبرلاند، حيث بإمكاني استعمال وقتي بطريقة أفضل، فلا أقضيه بتسلّق الجبال.

ـ ولعلّك وجدت هنا بعض ما يشغلك؟

فنظر إليّ إذ أحسّ في كلامي ما يشير إلى التهكّم، إنما لم يكتشف السبب من خلاله، فحافظ على هدوئه وقال:

ـ أنت تعرف أنني ما زلت أُفضّل الكتاب على عصيّ الجبال.

فتطّلعت إليه وركّزت نظري في نظره، وقلت:

ـ أوَ لست ترى في مرافقة دروس الأرمونيوم من الإغراءات ما قد يتعسّر عليك وجوده في المطالعة؟

فاحمرّ وجهه خجلاً، ورأيته يضع يده على جبهته كمن يحاول الاختباء من ضوء المصباح. إلّا أنه تمالك نفسه في الحال وأجاب بصوت هادىء تمنّيته على غير هذه الصفة، قال:

مهلَك يا أبي. ولا تسترسل في اتهامي. ليس في نيّتي أن أخفي عنك شيئاً. فاتحتني بهذا الأمر ساعة كنت أتهيأ لإعلانه لك.

وتكلّم باطمئنان، وكمن يطالع في كتاب، وتفوّه بعباراته وهو يلتزم الهدوء كما لو كانت لا تعنيه. أحرجتني رباطة جأشه. وإذ شعر أنني على أهبّة الكلام مقاطعاً، رفع يده وقال: لا، دعني أوّلاً أكمل حديثي، فأمامك متّسع من الوقت لتتكلّم. وعند هذا أمسكت بذراعه وهززته، وصرخت به:

أهون عليّ أن تغرب عن وجهي منذ هذه الساعة، من أن أراك تحمل الاضطراب إلى هذه النفس الساذجة البريئة. أنا في غنى عن اعترافاتك. أمّا أن تستغلّ إعاقة هذه الفتاة وبراءتها وصفاءها فهذه خساسَة وأمر لا يحتمل، ولم أكن أظنّ أنّك تقدم عليه يوماً، وتحدّثني عنه بمثل هذه اللامبالاة!... أصغِ إليّ جيّداً: أخذت جرترود على عُهدتي ولن أسمح لك بعد الآن أن تكلّمها أو تلمسها أو تراها.

فردّ بلهجته الواثقة التي أحرجتني من جديد:

أحترم جرترود بقدر ما تحترمها أنت. وتخطىء إذ تحمل موقفي محمل المذنب، وتعتبر أن ثمّة ما يدعو إلى المؤاخذة، في مسلكي أو في مقصدي أو في قرارة نفسي. فأنا، كما قلت، أحبّ جرترود وأحترمها بقدر ما تحبّها. أما أن أُقدم على تعكير جوّها أو أن استغلّ إعاقتها وعماها، فهذا ما أستنكره استنكارك إيّاه. ثم تابع ليُفهمني أن جُلّ ما يبتغي أن يكون لها سنداً وصديقاً وزوجاً. وإن كان أرجأ مكاشفتي بهذا الأمر فلأنه لم يشأ إعلانه قبل تصميمه على الزواج، وجرترود ما زالت تجهل هذه النيّة لأن عليه هو أن يطلعها عليها. «هذا هو الاعتراف الذي كنت أنوي الإدلاء به أمامك، وليس لديّ ما أُضيفه إليه. صدَقْتُك الكلام فصدّقني».

أغرقتني هذه العبارات، في الدهشة. وأحسست، وأنا أستمع إليها، بصدغيّ يضربان بشدّة. ولم أكن أعددت لهذه القضيّة سوى عبارات التنديد والتوبيخ. وفيما كان يسترسل في كلامه، ليقطع عليّ كل سبب للاغتياظ، كنت أشعر بنقمتي تتفاقم، وتزيد من إحراجي، ولم أجد في نهاية كلامه ما أستطيع لومه عليه. فلزمتُ الصمت طويلاً، ثمّ نهضتُ ووضعت يدي على كتفه، وقلت:

ـ هلمّ بنا الآن إلى الفراش، وفي الغد أُفصِح لك عن رأيي.

فردّ:

غايةُ ما أرجو منك، إشعاري أنّك لم تعد ناقماً عليّ الآن.

وفي الغد، عندما التقيت جاك، خلت أنّني أراه للمرّة الأولى. وأدركت على الفور أنّه لم يعد ولداً: أصبح شاباً. وإذا كان هالني ما شاهدتُ، فلأنني حسبته صدر عن ولدٍ فاستفظعته. وقضيت ليلتي، أُقنع نفسي أنّ ما جرى، يبقى أمراً طبيعيّاً وعاديّاً، على عكس ما تصوّرت أوّلاً. أمّا لماذا ظلّ سخطي يتفاقم، فهو ما لن ينكشف لي أمره إلّا لاحقاً، ولا بأس إن انتظرت: عليّ أن أُكلّم جاك وأُعطيه قراري. كان صوت الضمير، تلك الغريزة التي لا تخطىء، يشير إليّ بوجوب العمل على منع حصول هذا الزواج.

فأخذت جاك داخل الحديقة وهناك سألته:

- هل عالنت جرترود بحبك لها؟
- لا، وقد يمكن أن تحسّسته فيَّ، إلّا أنّني لم أُفصِح لها عنه.
- أريد منك وعداً قاطعاً بألّا تقدم بعد الآن على مكاشفتها به.
- صممت أن أنزل عند إرادتك، إلّا أنني أرغب في معرفة أسباب اتخاذك هذا الموقف.

فتردّدت حول هذا الطلب إذ التبس عليّ ما إذا كانت

الكلمات التي في مخيّلتي هي التي يجب أن تتقدّم كلّ كلام آخر.

صوت ضميري تغلّب على نداء عقلي فتصرفت بموجبه:

ـ ما زالت جرترود صغيرة يا ولدي، ولم تحتفل بعد بمناولتها، وكما تعرف، ليست، ويا للأسف، كسائر الأولاد. ونموّها حصل في وقت متأخر. وربما يضطرب شعورها، لبراءتها، لدى سماعها أولى عبارات الحب. لذا يهمّني أن تعزِف عن إسماعها مثل هذا الكلام. من الجبن أن يسعى الإنسان إلى امتلاك مَنْ لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وأنا أعرف أنك لست بالجبان. وقد تعترض، لتفهمني أنّ عواطفك سليمة لا مجال فيها للملامة. أمّا أنا فأحسبها مخطئة ومسؤولة لأنها سابقة لأوانها. فالفتاة تعوزها الحكمة كونها لم تختبر الحياة بعد، وعلينا أن يكون هذا منطقنا بالنيابة عنها. وهنا يجب أن تصغي إلى نداء الضمير وأن تستجيب له.

يمتاز جاك حقّاً بقوّة الإرادة والمرونة، وتكفيه إشارة منّا إلى صوت ضميره لكي يرعوي ويقف عند الحدّ الذي نريده. وكثيراً ما استغللت هذه الطيبة فيه أيام طفولته. وأخذت أتأمّله على الأثر في قدّه الممتلىء والممشوق، الجامع بين المرونة والاستقامة، وفي جبينه الجميل خلا من كل تغضن، وفي نظراته الصادقة، ووجهه الذي ما زال على براءة الأطفال وقتم بعد الذي

حصل، وهو مكشرف الرأس وشعره الرمادي يتزرفن عند الصدغين ويغطّي قسماً من أذنيه. وفكّرت آنذاك بجرترود وتساءلت إذا كانت لا تعجب بمثل هذه الصفات التي ذكرت، لو قيّض لها أن تبصر. فقمت من عن المقعد حيث كنا نجلس وتابعت:

ـ كنت ترغب في السفر بعد الغد يا بنيّ، فأرجو الاّ تسعى إلى تأجيله. حاول أن تغيب عنّا شهراً كاملاً. وآن لك أن تفهمني.

فأجاب: حسناً يا والدي، فلن تجدني إلا صاغراً ومطيعاً لما أردت أن يكون.

وبان على وجهه الشحوب وتبدّل لون شفتيه. وأدركت عن اقتناع أنَّ امتثاله السريع لإرادتي يعني أنّ حبّه ما زال خفيفاً وفي طور بدايته. وشعرت إذّاك بانفراج يحلّ في نفسي إلى جانب تلك الأحاسيس التي غمرتني حيال انصياعه إلى طلبي. فقلت له بكل لطف:

وجدت ولدي الذي كنت أُحبّ.

ثمّ جذبته إليَّ وقبّلته في جبينه، أمّا هو فتراجع قليلاً إلى الوراء، ولم أرد أن أعلّق على هذه البادرة بشيء، وتجاهلتها.

فانتفضتُ وأجبت بعصبيّة:

ـ إذاً كان لديك بعض الشكوك حول هذا الموضوع؟

ـ أجل، كنت أتوقّع مثل هذا الحدث منذ زمنٍ بعيد، وهو ما يصعب على الرجال معرفته.

وإذ لم أجد حاجة بي إلى الاعتراض، وكان في كلامها بعض الصحّة، أجبت:

ـ كان باستطاعتك لفت نظري في حينه.

فظهرت على جانب من شفتيها ابتسامة متقلّصة، وهي ما تعمد إليه أحياناً لتخفي وراءها تحفظاتها، وهزّت رأسها:

ـ لو كان لي أن ألفت إلى كل الذي لا تلاحظه لاقتضاني الأمر متاعب جمّة.

أمّا ماذا كانت تعنيه بهذا التلميح، فهو ما كنت أجهله ولا أريد أن أسعى إلى معرفته، فأعـرضت عنه وقلت:

ـ لا أطلب سوى إبداء رأيك في الموضوع.

فتنهّدت وقالت:

ـ أنت تعرف، يا صاحبي، أنني لم أوافق منذ البداية على وجود جرترود عندنا.

وبذلت جهدي حتى أكظم غيظي بعدما عادت إلى التنديد بالماضي، فقلت:

ـ لا علاقة لهذه القضيّة بوجود جرترود عندنا.

إلّا أنّ آميلي تابعت كلامها:

ـ حسبت في كل وقت أنّ وجودها بيننا مجلبة لكلّ محظور.

وإذ كنت أرغب في التفاهم معها، اغتنمتُ هذه الفرصة وقلت:

ـ إذن تعتبري أنّ هذا الزواج في حكم الأمر المزعج. حسناً! هذا ما كنت أرجو سماعه منك. ليسعدني أن نكون على رأي واحد.

ولكي أُزيل من نفسها كلّ داعٍ إلى القلق، أطلعتها على انصياع جاك إلى إرادتي دون مقاومة، وأنه، بناءً على ذلك، سيذهب غداً في رحلة ستدوم شهراً كاملاً. وأضفت:

لّما كنت أهتمّ اهتمامك للحؤول دون لقاء جاك وجرترود بعد عودته من الرحلة، وجدت من المناسب نقلها إلى منزل الآنسة دي لا م... حيث باستطاعتي أن أراها في كل وقت، ولا أخفي عنكِ أنّني ارتبطت بتعهّدات ملزمة حيال هذا الموضوع، وأشعرت الآنسة بهذه الرغبة، واستجابت لها بالرضى التام. وهكذا ستتخلّصين من وجودٍ طالما أزعجك. فلويزا ستقوم بعد الآن بهذه المهمّة وهي تقبّلتها بالسرور إلى جانب بعض الدروس في الموسيقى شرعت في إعطائها.

وإذ لاحظتُ أنّ آميلي مستمرة في التزام الصمت أضفت:

ـ علينا أن نمنع كلّ لقاءٍ بين جاك وجرترود بعيداً عنّا، في

مكان إقامتها الجديدة، لذلك أُفضّل لفت الآنسة دي لا م . . .
إلى هذه القضيّة. فما رأيك؟

أردت من طرح هذا السؤال، أن أُحملها على الجواب ولو بكلمة، إلاّ أنّها ظلّت تتمسّك بصمتها كمن أُقْسَم على ذلك. فتابعت كلامي، لا عن حاجة إلى المزيد منه، بل لنفاد صبري من سكوتها، فقلت:

ـ آمل أن يعود جاك ويكون تعافى من حبّه. هل يستطيع معرفة ما يريد في مثل سنّه؟

فأجابت بشيء من الغرابة:

ـ آهِ، فقد يجهل بعضهم ذلك حتى بعد هذه السن.

أغاظتني لهجتها وهي تتكلم بالألغاز والحكم، وأنا من طبيعتي إنسان صادق، أرفض الأسرار والأحاجي، فاستدرت نحوها ورجوت منها أن تفسّر لي ما تقصد بهذه التلميحات.

فردّت بكآبة:

ـ لا شيء يا صاحبي، إنّما تذكّرت أنك تمنّيت عليّ، قبل لحظة، أن ألفتك إلى ما لم تكن تلاحظه.

ـ يعني؟

ـ كنت أفكّر بالصعوبة التي نلقاها في تنبيه الآخرين إلى أخطائهم.

ـ سبق وذكرت أنني أكره لغة الرموز وأرفض بالتـالي كلّ غموض متعمّد. وأضفت بشيء من الغلاظة، وهو ما أسفت له في الحال:

ـ متى شئتِ أن أفهم لك كلاماً، جرّبي أن تعبّـري عن أفكارك بصراحة، وعلى الأثر، رأيتُ شفتيها ترتجفان، فتدير وجهها عنّي، ثم تنهض وتخطو في الغرفة بعض الخطوات وهي تتردّد في مشيتها وتترنّح.

فصحت بها:

ـ لماذا تستمرين في اكتئابك يا آميلي؟ لم يعد لدينا الآن من مشاكل. سوّيناها كلّها.

وإذ شعرتُ أنّ نظراتي تضايقها، أدرت ظهري واستندت إلى الطاولة ووضعت يدي على رأسي وقلت:

ـ سامحيني لأنني أسمعتك كلاماً قاسياً.

فسمعتها تقترب مني وشعرت بأصابعها تلامس جبيني وهي تقول بصوت رقيق تملأه الغصّة والدموع:

ـ آه، يا صاحبي المسكين!

كلّ هذه العبارات التي تراءت لي للحـظة، كأنّها أسـرار وأحاجي، انجلت لي وزال غموضها عني: أوردتها كما تخيلتُها أوّلاً، وأدركتُ يومها ضرورة أن تبتعد جرترود عنّا.

١٢ آذار

آليت على نفسي أن أُكرّس بعض الوقت يوميّاً لخدمة جرترود. وكانت الفترة تتراوح بين الساعات واللحظات، وفقاً لمشاغلي. وفي اليوم التالي لحديثي مع آميلي وجدتني عاطلاً عن العمل، وكان الطقس جيّداً للنزهات، فذهبت وجرترود نجوز بالغابة، إلى ذلك المنعطف من جبال الجورا حيث العين تكتشف سحر مرتفعات الألب البيضاء، فوق سحابة من الضباب الخفيف، ومن خلال أغصان الشجر، وعبر كل هاتيك البقاع الشاسعة تشرف عليها. هذا إذا ما صحا الجوّ وكان صافياً. كانت الشمس تميل إلى يسارنا عندما بلغنا ذلك المكان اعتدناه مجلساً لنا. كانت الأراضي التي تكسوها أعشاب، بين طفيفة وكثّة، تنحدر تحت أقدامنا أكثر فأكثر، وعلى مسافة منّا، بعض الأبقار ترعى، وتحمل كلّ منها جرساً في عنقها شأن أقطاع الجبل.

فقالت جرترود وهي تصغي إلى رنينها:

ـ لعلّها ترسم لنا مشاهد هذه الأراضي.

ثمّ طلبت إليَّ ، كمثل عادتها في كلّ نزهة، أن أصف لها المكان. فقلت لها:

ـ إنّك لا تجهلينه، فهو أحد التخوم التي نرى منها جبال الألب.

ـ هل تراها جيّداً اليوم؟

ـ أجل، بكلّ مفاتنها.

ـ أخبرتني مرة أن مناظرها تختلف بين اليوم والآخر.

ـ وما عساي أُشبّهها لك إلّا بعطش أحد أيّام الصيف. فستغيب معالمها عن أبصارنا قبل حلول هذا المساء.

ـ أتمنى لو أعلمتني إذا كان من زنابق في هذه الحقول التي تمتدّ أمامنا.

ـ لا، يا عزيزتي، فالزنابق لا تنمو على المرتفعات، إلّا إذا احتملنا وجود بعض أصناف منها نادرة.

ـ تعني أنها غير التي نعرفها بزنابق الحقول؟

ـ لا زنابق في الحقول.

ـ أوَ تنفي وجودها حتى في الحقول التي تجاور نوشاتيل؟

ـ أجل، فزنابق الحقول اسم لغير مسمّى.

ـ إذاً لماذا قال الربّ لنا: «انظروا إلى زنابق الحقول».

ـ كانت موجودة، ولا شكّ، في زمانه حتى أتى على ذكرها. إلّا أنّ يد الإنسان أزالتها.

ـ كرّرت على مسمعي أنّ أكثر ما تحتاج إليه أرضنا هو الإيمان والحبّ. ألا تعتقد، في مثل هذه الحال، أن باستطاعة الإنسان، لو كان إيمانه أقوى، أن يعود فيشاهدها؟ أنا أراها، حقيقة، كلّما عاود مخيّلتي هذا الكلام. دعني أصفها لك: أشبه بأجراس من اللهب، ضخمة من اللازورد، يفوح منها عطر الحبّ وتتأرجح في رياح المساء. ولماذا تنكر عليّ وجودها هناك أمامنا؟ أحسّها وأراها تملأ كلّ الحقول.

ـ لكنها ليست أجمل من التي ترينها، يا جرترود.

ـ بل قل إنها ليست أقلّ جمالاً.

ـ إنها بمستوى الجمال الذي تحسّينه أنت.

وراحت تتفوّه بكلام السيد المسيح:

«الحق أقول لكم، إنّ سليمان في كلّ مجده لم يلبس كواحدة منها» وإذ كان في صوتها موسيقى وحلاوة، خُيّلَ إليَّ كأنني أسمع هذه العبارة للمرّة الأولى في حياتي. وأردفت تكرّر، غارقة في تفكيرها: «في كلّ مجده». ثم مكثت بعض الوقت صامتة. فقلت لها:

ـ ذكرتُ لكِ من قبلُ، يا جرترود، أنّ ذوي البصر لا يحسنون الرؤية. وأحسستُ إذّاك بالصلاة التالية ترتفع من أعماق قلبي: «أشكرك يا الله لأنّك تكشف للوضعاء ما تخفيه عن ذوي المعرفة»!

فصاحت وهي في انتشاءٍ طريف:

ـ آه! لو قدّر لك أن تعرف بأيّة سهولة أتصوّر كل ذلك. وإذ قلت لي إنّ عيون البشر مغمضة لا ترى، فدونك وصفي لهذه المناظر... إنّ وراءنا إلى فوق، أو من حولنا، أشجاراً كبيرة من التنوب هي بطعم الراتنج، وجذوعها حمراء قاتمة كالعقيق، وغصونها بيضاء على كدرة وأفقيّة الشكل، تتذمّر كلّما حاولت الرياح إحناءها. وعند أقدامنا هذه الحقول الخضراء والمبرقشة، تنبسط كما كتاب مفتوح انحنى على صفحة الجبل، يزرّقه الظلّ وتصفّره الشمس، وكلماته المميّزة أزهار من الجنطانيا والبولساتيل والخوزان وزنابق سليمان الجميلة، تأتي الأبقار لتهجئته بأجراسها وتنزل الملائكة لتقرأ فيه. عند أسفَل الكتاب، أرى نهراً كبيراً من الحليب المدخّن والمضبّب، يغطّي كامل هوّة من الأسرار. إنّه نهر هائل، لا ضفّة له إلّا فيما نراه أمامنا، هناك، إلى البعيد، في جبال الألب الرائعة. أجل إلى هناك، سيرحل ابنك جاك، فقل لي: هل سيرحل في الغد؟

ـ أجل، إنه، كما تقولين، راحل في الغد، هل أطلعك على ذلك؟

ـ لا، لم يطلعني على شيء من هذا، وإنّما أدركته تلقائيّاً. هل هو باقٍ هناك لمدة طويلة؟

ـ لشهر، كنت أرغب في سؤالك يا جرترود... لماذا لم

تخبريني عن التقائه بك في الكنيسة؟

ـ التقينا فيها مرّتين. ولم أرد أن أخفي عنك شيئاً، إلاّ أنني خشيت أن أتسبّب لك ببعض القلق من جراء هذا اللقاء.

ـ بل على العكس، كتمانه عني يدعو إلى قلقي.

وراحت يدها تفتّش عن يدي، وقالت:

ـ أحزنه هذا السفر.

ـ تكلمي، يا جرترود... هل أفصح لك عن حبّه؟

ـ لا، لم يُفصِح لي عنه، وإنما أحسسته في نفسه ولم أحتج إلى كلام، على كلٍّ فهو لا يحبّني بقدر ما يحبّك أنت.

ـ وأنتِ، يا جرترود، هل تتألمين لرحيله؟

ـ من الأفضل ألاّ يتخلّف عن القيام برحلته. فقد لا أستطيع أن أُعطيه جوابي.

ـ بل قولي إذا كنت تتألمين لسفره؟

ـ أنت تعرف جيّداً أنّني لا أحبّ إنساناً سواك... لأيّ سبب تخلّت يدك عن يدي؟ لم أكن لأُقدم على مثل هذا الكلام لو لم تكن متزوّجاً. على كلٍّ، لا إنسان يتزوج عمياء. ألا يسوغ لنا، والحالة هذه، أن نتحابّ، فيحبّ أحدنا الآخر؟ هل من شرّ في هذا العمل؟

ـ لا، فالحب والشر لا يتفقان.

ـ كل أحاسيسي طيّبة. ومن أجل ذلك يهمّني ألّا أتسبّب بألم لجاك. كما أرفض ذلـك لمطلق شخص آخـر... وغايـة ما أرجو، أن أوفّر السعادة للآخرين.

ـ كاد جاك يطلب يدك.

ـ هلّا سمحت لي بمكالمته قبل سفـره؟ أرغب في إفهامـه ضرورة الإقلاع عن حبّي. ليس بوسعي الزواج من أحد. لذلك أرجو التحدّث إليه، فهلّا سمحت به؟

ـ لكِ ما تطلبين، وهذا المساء.

ـ لا، أريد أن يتمّ ذلك في الغد ساعة سفره...

كـانت الشمس تغيب وراء الأفق، وسط بهاء صـاخب. والهواء كان عليلاً. وكنّا نهضنا، وأخذنا طريقنا المظلمة، للعودة إلى المنزل ونحن نتكلّم.



الدفتر الثانــــي

٢٥ نيسَان

كان لا بد لي من التخلّي بعض الوقت عن متابعة تدوين هذه المذكرات.

كذلك رأيتني مضطراً، بعد زوال الثلوج وبعدما أصبحت جميع الطرق سالكة، أن أعود إلى مزاولة واجباتي الكثيرة التي أهملتها قسراً طوال مدّة انعزال القرية. ومنذ ذلك الحين لم أجد الراحة إلّا البارحة.

وعمدت الليلة الفائتة إلى قراءة مـا كنت دوّنته في هـذه المذكرات...

لم يسبق لي أن تجاسرت قبـل الآن على تسميـة عاطفتي باسمها، هـذه التي ظلّت راكدة في أعمـاق قلبي ردحاً من الزمن. وأكاد أجهل، لأيّ علّة غفلت عنها إلى هذا التاريخ، أو كيف اعتبرت بعض أقوال آميلي كأنّها أسـرار، أو كيف استطعت، حتى الآن، أن أشكّ إذا كنت أُحبّ جرترود، بعد

اعترافاتها الساذجة. ذلك أني أرفض أن أتصوّر الحبّ جائزاً في غير الزواج، أو أن أشتمّ بعض الجرم في عاطفتي التي تشدّني إليها بكلف.

فاعترافاتها الساذجة وصدقها فيها، كلّ ذلك كان يدعو إلى طمأنتي. وكنت أقول في نفسي: لا تزال صغيرة، في سنّ الأولاد. فالحبّ الحقيقي مشحون بكلّ ما يحرج ويخجل. ومن جهتي كنت على اقتناع أنّ حبّي لها هو كحبّ كل إنسان لكلّ ولد مُعاق. اعتنيت بها اعتناء الآخرين بالمرضى، وجعلت من تعلّقي بها التزاماً وواجباً. ففي تلك الليلة نفسها حين كانت تحادِثني، كما ذكرت، كنت أشعر بالارتياح والسرور ملء كياني، فظللت في جهلي حتى في نقل هذا الكلام. وإذ كنت أحسب الحب حالة لا تخلو من المؤاخذة، وأنّ كل مؤاخذة من شأنها أن تحني النفس، وإذ لم أكن أشعر بما يثقل نفسي، وجدتني خلواً منه.

لم أنقل هذه الأحاديث كما جرت وحَسب، بل سجّلتها في وضع روحيّ مماثل. لم أفهم، إلاّ في هذه الليلة وعند قراءة هذه المذكرات...

عادت حياتنا إلى مجراها الطبيعي من الهدوء بعد رحيل جاك عنّا. ولم يعد إلينا إلاّ في أواخر العطلة. وكنت أجزت له التحدّث إلى جرترود قبيل سفره، بعدما أخذت منه عهداً على

نفسه بتجنّبها والامتناع عن مكالمتها إلاّ في حضوري، وأصبحت هذه، تقيم في منزل الآنسة لويزا وفقاً لما اتفقنا عليه. ورحت أتفقدها فيه كل يوم. واعتمدت ألاّ أفاتحها بما من شأنه أن يثيرنا ويشير إلى الحب. وغدوت أحادثها من خلال صفتي الروحيّة، كقسّ، وبحضرة لويزا، أغلب الأحيان، مهتمّاً بتربيتها الدينيّة وبإعدادها للمناولة التي جرت في عيد الفصح.

وفي ذلك اليوم تناولت أنا أيضاً.

جرى هذا، لخمسة عشر يوماً خلت: جاء جاك يقضي عطلته الفصليّة بيننا، في حدود الأسبوع. وبسوغتّ إذ لم يشاركني في الاقتراب من المائدة المقدّسة. كما يؤسفني شديد الأسف أن أشير هنا إلى امتناع زوجتي عن المناولة هي أيضاً، ولأول مرّة من تاريخ زواجنا. وبان لي كأنّهما على اتفاق، فانتويا هذا التخلّف الصريح في هذه المناسبة الموسميّة الهامّة ليعكّرا عليّ فرحي. وهنّأت نفسي إذ كنت احمّل وحدي ثقل ما حدث وأن تكون جرترود بعيدة لم تلاحظه. أعرف جيّداً آميلي، كي لا يفوتني مغزى مسلكها هذا، وهو من باب النقد غير المباشر، إلاّ أنها لم تعوّدني، من قبل، أن تلجأ إليه بمثل هذه العلانية، إذ كانت تكتفي قبلاً بانكفائها عنّا واعتكافها في مكان منفرد للتعبير عن امتعاضها.

وآلمني كثيراً أن تذهب، في تظلّمها، إلى حدّ الإسفاف الذي يعزّ عليّ تصوّره، فأحنى نفسها وأحادها عن مصالحها العليا. وحال عودتي إلى المنزل رحت أصلّي من أجلها بكلّ نقاوة قلبي.

أما امتناع جاك، فيعود إلى دواعٍ مختلفة اطَّلَعْتُ على حقيقتها، بعد المحادثة التي جَرَت بيني وبينه في هذا الشأن.

٣ أيار

اضطرتني تربية جرترود الدينيّة إلى إعادة الإنجيل بقراءة جديدة. واتّضح لي أكثر فأكثر، أنّ عدداً من المفاهيم التي تكوّن إيماننا المسيحي، تعود إلى تفسيرات القديس بولس، لا إلى أقوال المسيح.

ذلك ما كان موضوع جدال بيني وبين جاك. إنه جاف المزاج، لا يسمح قلبه بإمداد فكره بالغذاء الكافي، فغدا تقليديّاً عقديّاً، يتهمني باختيار «ما يطيب لي» من المذهب المسيحي. إلّا أنني لا أختار هذا أو ذاك من كلام المسيح، وإنّما أقتصر، باختياري، على المسيح وحده، لو خيّرت بينه وبين القديس بولس. فهو يرفض أن يفرّق بين الاثنين تحاشياً لكل تباين. وينفي أن يكون خلاف في ما يوحيان به إلينا، ويعترض كلّما قلت له إنّني مع القديس بولس إنما أصغي إلى كلام إنسان، بينما أراني مع المسيح أسمع صوت الله. وكلّما حلّل أمامي، زادني اقتناعاً بأنّه عديم الشعور بالطابع الإلهي وحده، دون سواه، الكامن في كل كلمة من كلام المسيح.

عبثاً فتّشت في الإنجيل فلم أعثر فيه على ذكر لوصيّة، أو

لتهديد، أو تحريم. . . كل ذلك أتانا من القديس بـولس.
ويغتاظ على وجه التحديد من إشارتي إلى خلوّ كلام المسيح من كل ذلك. فالنفوس التي تشبه نفسه تحسّ بالضياع حالما تشعر بافتقارها إلى مسند تستند إليه أو كلّ متّكإٍ آخر. ونراها، فوق كلّ ذلك، لا تسمـح، إلاّ بصعوبـة، أن يمارس الآخـرون اختيارات تعفو هي عنها، وتسعى عن طريق الإكراه إلى ما هو متيسّر لها عن طريق الحبّ.

قال لي مرّة:

ـ وأنا كذلك، يا أبي، اتمنّى سعادة النفوس.

ـ لا، يا صاحبي، بل أنت تريد إخضاعها.

ـ السعادة تكمن في الخضوع.

تركت له الكملة الأخيرة، لأنني أكره المماحكة. غير أنّني أعرف جيّداً أنّنا نعرّض السعادة للخطر كلّما طلبناها عبر أشياء ينبغي أن تكون في الأساس نتيجـة لها، وإذا سلّمنـا جدلاً بصوابيّة اعتبار النفس المحبّة تغتبط في استسلامها الإرادي، فلا شيء يبعدها عن السعادة، كالاستسلام الخالي من الحبّ.

على كلٍّ، فجاك يعلّل الأمور تعليلاً حسناً. ولولا امتعاضي من وجـود تصلّب مذهبي في ذهنـه، وهو مـا زال في طـور النشـوء، لكنت، ولا شك، أعجبت بنـوعيّة حججـه وقـوّة منطقه. وكثيراً ما خيّلَ إليَّ أنّني دونه سنّاً، وأنّني اليوم أصغر منّي بالأمس، وأتذكّر إذّاك كلام السيد: «إذ لم تعودوا إلى مثل

هؤلاء الصغار فلن تستطيعوا دخول الملكوت».

فهل خيانة منّا للمسيح، أو إنقاص أو تدنيس للإنجيل، إذا لم نرَ فيه سوى وسيلتنا لبلوغ حياة السعادة؟ فحالة الفرح التي يمنعها علينا شكّنا وقساوة قلوبنا، هي بالنسبة إلى المسيحي حالة واجبة. والفرح في النفس نسبيٌّ بين شخص وآخر، فلا يبلغه الجميع على السواء. وعلى كلّ إنسان أن يسعى إليه. وابتسامات جرترود تعلّمني ما تعجز عن توفيره دروسي لها.

وكلام المسيح التالي، يظهر أمام ناظريّ بحروف من نور. «لو كنتم عمياً لما كان فيكم خطيئة». فالخطيئة هي التي تظلم النفس وتعترض طريقها إلى الفرح. وسعادة جرترود التامة تشعّ من كلّ كيانها، تنبع من كونها لا تعرف الخطيئة، إذ ليس فيها سوى الصفاء والحبّ.

وضعت بين يديها اليقظتين، الأناجيل الأربعة والمزامير وسفـ الرؤيا ورسائل يوحنا، حيث تقرأ: «الله نور وليس فيه ظلام» وسبق لها أن سمعت في إنجيل يوحنا كلام الرب. «أنا نو العالم ومن كان معي لا يسير في الظلمة». وامتنعت عن أ أضع بين يديها رسائل القديس بولس. فهي عمياء، لا تعرفـ الخطيئة، ولا حاجة إلى إقلاقها بقراءة: «أخذت الخطيئة قوّة جديدة عبر الوصيّة» الرسالة السابقة، إلى الرومانيين ـ الفقرة ١٣). أو القسم الباقي منها، وهو مثار للإعجاب.

٨ أيار

جاءنا أمس الدكتور مارتين من لاشودي فون. فحص بدقّة عينيّ جرترود بالمجهار وأفادني أنّه تكلّم مع الدكتور رو، الطبيب الاختصاصي في لوزان، بشأنها، وعليه أن يزوّد هذا بكل ملاحظاته، وهما يتوقعان خيراً من إجراء عملية لها. إلّا أنني اتّفقتُ معه على عدم مكاشفتها مسبقاً بهذا الأمر، قبل تأكّده لنا، إذ لا حاجة أن نلفتها إلى أمل قد يتلاشى بسرعة، لا سيّما وهي سعيدة في حالتها الحاضرة... والدكتور مارتين عائد إلينا قريباً لاطّلاعي على نتيجة المشاورة.

١٠ أيار

يوم الفصح، تقابل جاك وجرترود في حضوري. حديث هذا اللقاء، اقتصر على أشياء تافهة، لم ألاحظ من خلالها الانفعال الذي كنتُ أتخوّفه على جاك. واقتنعتُ ثانيةً، أنّ حبَّه لم يكن شديداً، وإلّا لما كان استطاع أن يتخلّص منه بمثل هذه السهولة، ولو كانت جرترود صارحته، في العام الفائت، وقبيل سفره، بوجوب الإقلاع عنه إذ لا أمل له فيه. كذلك لاحظت أنّه خاطبها حسب الأصول بصيغة الجمع. وسرّني هـ التصرف الحكيم، يباشره تلقائيّاً. فهو، يقيناً، على كثير م المزايا الطيّبة.

ومع ذلك، أشكّ في حصول مثل هذا الإذعان دون نقاش طويل مع نفسه وصراع. وأخشى ما أخشاه في هذا الإكراه الذي فرضه على قلبه، أن يعتبر كتدبير صالح في ذاته، فيستسيغ تطبيقه على الآخرين. وأحسست منه ذلك، في الجدل الذي قام بيني وبينه وأشرت إليه. أوَلم يقل لنا لا روشفوكو إنّ القلب كثيراً ما يخدع النفس؟ لم أجسر على مناقشته فوراً في

هذا الشأن خصوصاً وأنا أعرف مزاجه وأنّه من الذين يزيدهم الجدل إصراراً على وجهة نظرهم. وفي تلك الأمسية نفسها، وإذ كنت عاجزاً عن إفحامه بسوى سلاحه، وجدت ضالّتي في القديس بولس ذاته على وجه التحديد للإجابة عنه، فحرصت أن أترك له في غرفته بطاقة كتبت عليها الآية التالية: «والذي لا يأكل لا يدينَنّ مَنْ يأكل، لأنّ الله قبله». (رسالة بولس إلى الرومانيين ١٤ - ٣). وكان بإمكاني أن أخطّ له ما يليها من الرسالة: «إنّني عالم ومتيقّن في الرب يسوع أنه ما من شيء نجس في ذاته؛ بيد أنّ من يحسب شيئاً نجساً فله يكون نجساً». - وأعرضت عن ذكرها مخافة أن يذهب بعيداً في تصوّره، مما يجب ألّا يساور مخيّلته فيؤوّلها إلى ظنون قائمة فيَّ بالنسبة إلى جرترود وتمسّ كرامتها. أجل، فعلى الطعام يدور كلام هذه الآية كما يبدو صريحاً. غير أننا، في مقاطع أخرى كثيرة من الكتاب المقدس، نُضطّرّ إلى إعطاء الآيات معنى أو معنيين أو ثلاثة. من مثل: («إذا عنيك. . .» تكثير الخبز، معجزة عرس قانا، إلخ). ولا مجال للجدل، فمعنى هذه الآية واسع وعميق: والتحديد يجب أن يمليه الحبّ لا الناموس. وهذا القديس بولس نفسه يتابع كلامه: «إذا كان أخوك يغتمّ من أكل طعام، فلست تسلك بعد بحسب المحبّة». والشيطان لا يهاجم إلا حيث تنتفي المحبّة. ربّاه، انزع من قلبي كلّ ما

يخصّ المحبة... أخطأت إذ تحدّيت جاك: وجدت في اليوم التالي على مكتبي البطاقة التي كنت تركتها له مع الآية الآنفة الذكر، كتب على قفاها آية أخرى من الفصل نفسه: «لا تهلك بطعامك من لأجله مات المسيح». (للرومانيين ١٤ ـ ١٥).

عدت إلى تلاوة هذا الفصل بأكمله. وهو نقطة انطلاق لجدل لا نهاية له. فهل أقدم عليه فأنكّد على جرترود حياتها بالبلبلة والارتباك وأعكّر سماءها المشرقة بمثل هذه الغيوم المكفهرّة؟ أوَلستُ أقرب إلى المسيح فأحرص على إبقائها قريبة هي أيضاً منه عندما أعلّمها وأضع في يقينها أنّ لا خطيئة إلّا في الأشياء التي تمسّ سعادة الآخرين أو تعرّض سعادتنا إلى الخطر؟

بعض النفوس تظلّ ويا للأسف على رفضها للسعادة بنوع خاص. وقد يكون ذلك لعدم كفاءة فيها أو لغباوة... وعند هذا الكلام ألْتفِتُ إلى زوجتي آميلي، مسكينة هي. فلكم دعوتُها إلى السعادة، ولَكم حرّضتها عليها وسلكت معها أحياناً طرق الإكراه، كوني أرغب في رفع كل إنسان إلى الله، إلّا أنّها ما زالت تتهرّب وتنغلق كبعض الأزهارِ التي لا تفتّحها شمس ـ وكل ما يقع تحت نظرها، موضوع لإقلاقها وإحزانها.

أجابتني في أحد الأيّام الأخيرة، قالت:

ـ ما عساي أعمل ولم يكتب لي أن أكون عمياء.

آه، كم يشقيني هذا التهكّم توجهه إليّ، وأيّة فضيلة تلزمني لكي أعتصم حياله بهدوئي! ويخيّل إليّ أنها لا تجهل مدى ألمي من كل هذه التلميحات التي تشير إلى إعاقة جرترود، فتعمد إليها وتحاول إشعاري أنّ عذوبة جرترود هي مثار إعجابي بها: لم أسمعها قطّ تتلفّظ بكلمة تسيء إلى إنسان. كذلك لم أتطرّق يوماً معها إلى شيء يُشْتَمُّ منه خلاله ما يجرح شعورها.

وكما النفس السعيدة تشيع السعادة حولها عبر الحب، هكذا تحوّل محيط آميلي إلى ظلمة وكآبة. وقد تدوّن يوماً في مذكّراتها ذكراً لهذه السحب السوداء التي كانت نفسها مصدراً لها. وعندما أعود إلى المنزل، بعد هبوط الليل، وبعد يوم حافل بالجهاد وزيارة المرضى والمحزونين، منهكاً، في أشدّ الحاجة الملحّة إلى الراحة وإلى العطف والدفء، لا أجد في بيتي غالباً سوى سيل من الهموم والمشاحنات أشدّ مرارة على قلبي من صقيع الخارج ورياحه وأمطاره. أعرف جيّداً أن خادمتنا العجوز روزالي ترفض كل عمل لا يروقها. إلاّ أنّها ليست دائماً على خطأ، كما أنّ آميلي ليست دائماً على صواب في حملها هذه الأخيرة على الامتثال لأمرها. ولا يفوتني أنّ شارلوت وغاسبار ولدان شقيّان للغاية، إنما باستطاعة آميلي أن تحدّ من طيشهما لو خفّفت حدّة صراخها في وجهيهما وقلّلت تنبيهاتها ـ فكل هذه التحذيرات والتوبيخات ومحاولات القمع بالقوّة التي تلجأ إليها

تفقد مفعولها المجدي مع الأيّام وتصبح كحصى الشاطىء تَعَرَّتْ من كل حدّ لها يقطع. وانزعاج أولادي حيال هذه الشجون، دون انزعاجي بفارق كبير. وأعرف جيّداً أنّ صغيرنا كلود أخذت أسنانه تنبت (الأمر الذي استمدّت منه ذريعة ليكون شغلها الشاغل ساعة بكائه). فهي وسارة تسرعان إليه كلّما بكى، وتهدهدانه دون انقطاع. أليس في ذلك دعوة ضمنيّة لكي يعود إلى الصراخ. وبتّ على يقين أنّ بكاءه هذا، يخفّ كثيراً لو ترك يبكي على هواه حتى الثمل عندما أكون خارج البيت. غير أنني أعرف أيضاً أنّهما تبادران إليه خصوصاً في مثل هذا الوقت من غيابي.

إنّ سارة تشبه أمّها، وفكّرت بوضعها في مدرسة داخليّة لهذا الاعتبار وهي، ويا للأسف، لا تشبهها عندما كانت هذه في مثل سنّها، حين إعلان خطبتنا. ولكنّها تشبهها في هذه الحال التي آلت إليها من هموم الحياة المادّيّة وكدت أقول نتيجة رعايتها لهذه الهموم (آميلي تدأب حقيقة على تنمية همومها). وبات من الصعب عليّ أن ألمح فيها أثراً لذلك الوجه الملائكي الذي كان يبسم لي في كل مساعيّ الخيّرة التي كان يضجّ بها قلبي، وتلك التي حلمت بدمجها في حياتي دمجاً كليّاً، وكانت تراءت لي سبّاقة إلى عمل الخير، وتقود خطواتي إلى النور ـ قد يكون حبّي له آنذاك يخدعني فلم أحسن الرؤية... وإني لا أرى لدى سارة

سـوى مشاغـل مبتذلـة. وهي علـى غـرار أمّهـا تنهمـك في اهتمامات لا قيمة لها. وقسمات وجهها باهتة وقاسية لا تشير بشيء إلى شعلة في داخلها تُرَوّجُها. وهي لا تتذوّق الشعر ولا المطالعة بوجه عام. كما أنها لم تفاجئني مرّة بحديث مع والدتها أغراني أن أشترك فيه إلى جانبهما. وأحسّ غربتي بالقرب منها أثقل عليّ من وحشة المكتب فأنسحب إليه راضياً، وأنا اعتدت ذلك ورحت أعيده في أكثر الأحيان.

كذلك اعتدت منذ الخريف، شجّعني على ذلك قصر النهار، آن أذهب لاحتساء كوب من الشاي عند الآنسة دي لا م. . . كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً بعد فراغي من زياراتي، أي لدى عودتي باكراً من عملي. لم أذْكُرْ بعد أن لويزا دي لا م. . . تضيف في منزلها، منذ تشرين الثاني المنصرم، ثـلاث بنات ضريرات أوكل الدكتور مارتين أمرهنّ إليها. وتقوم جرترود بتعليمهنّ القراءة وممارسة أعمال صغيرة أظهرن فيها الكثير من المهارة. فأيّة راحة بل أيّة تعزية أحسّها في هذا الجوّ الدافىء. وكم أشعر بقسوة الحرمان إذا صدف وانقطعت عن الذهاب إليه يومين أو ثلاثة. والآنسة دي لا م. . . مسرورة بإضـافة جرترود وتلميذاتها الثلاث. ولديها ثلاث خادمات يسـاعدنها بكل إخلاص ويجنّبنها التعب. وهل ثروة أو فرحة استحقّتا بهذا القدر؟ اعتنت في كل وقت بالفقراء اعتناءً كبيراً. فهي نفس

تقيّة، وكأنّها كرّست نفسها لهذه الأرض ولا تعيش فيها إلاّ في
سبيل حبّ الآخرين. وبالرغم من أنّ الشيب دبّ في معظم
شعرها الذي تغطّيه قبعة دانتيلا، ثلاثية التشبيك، فما زالت
ابتسامتها على براءة ابتسامة الأطفال، وحركاتها على تناسق
رائع، وفي صوتها موسيقى وأنغام. وتقلّدها جرترود في
تصرفاتها وفي طريقة تحدّثها، وفي ذلك الإيقاع الذي لا يقتصر
على الصوت وحسب بل يتعدّاه إلى الفكر والكيان بأجمعه ـ
وأصبح هذا التشابه موضوعاً لمزاحي مع كلّ منهما، إلاّ أنّهما
تنفيان عليّ حسّهما بوجود هذا الشبه. وكم يطيب لي المكوث
لديهما إذا ما سمح الوقت، وأن أراهما تجلس الواحدة إلى
جانب الأخرى وجبين جرترود على كتف صديقتها، أو أن
تكون إحدى يديها في يدي هذه، بينما تنصتان إليّ أقرأ عليهم
بعضاً من أشعار لامرتين أو هوغو. بل كم يلذّ لي أن أتأمّل في
نفسيهما الصافيتين انعكاساً لهذا الشعر، وشمل البنات الثلاث
أيضاً. وفي هذا الجوّ العابق بالسلام والحب، أخذت هؤلاء
البنات ينمين بشكل يدعو إلى الدهشة ويحققن نجاحاً رائعاً.
وعندما كلّمتني عن عزمها على إعطاء البنات دروساً في الرقص
لاعتبارات صحيّة وللترفيه عن النفس، تبسّمت إذ حسبته عملاً
بلا جدوى. واليوم، أرى، بإعجاب، رقّة الحركات المتّسقة
التي حقّقنها، هذه الحركات التي يعجزن ويا للأسف عن

تقديرها. وعلى كلٍّ، فلويزا تقنعني بإمكان هؤلاء أن يتحسّسن عضليّاً تناسق هذه الحركات التي لا يرينها. وتشترك جرترود في هذه الرقصات بكياسة فاتنة، وتستمد منها تسلية بالغة. ولويزا نفسها تشارك أحياناً هؤلاء الصغيرات في ألعابهنّ، فتجلس جرترود مكانها أمام البيانو للعزف عليه. وأمّا ما حقّقته هذه من نجاح في حقل الموسيقى، فهو ما يدعو إلى الإعجاب. وغدت في هذه الأيام تتعهّد أرغن الكنيسة الصغيرة كل أحد، وتباشر عزفها قبل بدء التراتيل بمقطوعات صغيرة مرتجلة.

وفي كل أحد أيضاً، تأتي جرترود لتناول طعام الغداء عندنا. ويفرح بها أولادنا بالرغم من الفارق الآخذ بالتعاظم بين ذوقها وذوقهم. ولا تظهر آميلي كبير امتعاض تجاه هذه الزيارة ويتمّ تناول الطعام وسط هدوء تام. وعند انصراف جرترود ترافقها كل العائلة إلى منزلها حيث تأخذ معها وجبة العصر. وتغدو هذه الزيارة لدى أولادي أشبه بأيام الأعياد إذ تغدق عليهم لويزا هداياها من الحلوى وغيرها. وآميلي نفسها تتأثر بجوّ هذه المجاملات الطيّبة، فيذهب عنها عبوسها وتنفرج أساريرها وتظهر وكأنها جدّدت شبابها. ولا أخالها تتخلّف بعد الآن، إلّا بصعوبة، عن مثل هذه الهنيهات المرحة من مجرى حياتها المملّة القاتمة.

١٨ أيّار

الطقس صاحٍ. خرجت وجرترود في نزهة لم نقم بمثلها منذ أمدٍ طويل. (فالثلوج كانت لأيّام، على دفعات بين الحين والآخر، وظلّت الطرق من جرائها في حالة سيّئة). كما لم يتهيّأ لي أن ألتقيها وحيداً قبل اليوم.

كنّا نسير بسرعة. وكانت حدّة الهواء تحمّر خدّيها وتسدل شعرها الأشقر على وجهها دون انقطاع. وإذ كنا بمحاذاة محثة، قطعت بعض نباتات الأسل، وهي مزهرة، ومرّرت جذوعها تحت قبعتها وجدلت بها شعرها لإبقائه مجموعاً غير شتيت.

لم نكن بدأنا حديثاً بعد، وباغتنا اجتماعنا معاً وعلى انفراد، عندما استدارت جرترود نحوي، دون أن تتطلّع إليّ، وسألتني:

ـ هل تقدّر أنّ جاك ما زال يحبّني إلى الآن؟

فأجبت على الفور:

ـ اتخذ قراره النهائي واعتمد أن يتخلّى عنك.

وتابعت:

ـ هل هو على علم من حبّك لي؟

منذ حديث الصيف الفائت، مضى عليه أكثر من ستة أشهر، لم يدر بيننا أيّ حديث أُلمح فيه بكلمة عن الحبّ (الأمر الذي يدهشني). ولم يُكتَب لنا قبل اليوم، كما أسلفت، أن التقينا معاً منفردين. ويا ليتنا ظللنا هكذا... هزّني السؤال بشكل عنيف وحملني على تخفيف سرعة سيرنا. فقلت:

ـ كل الناس تعرف، يا جرترود، أنني أُحبّك.

وإذ لم يخدعها كلامي، قالت:

ـ لا، لا، إنّك لا تجيبني عن سؤالي.

والتزمت الصمت بعض الحين، ثم تابعت كلامها:

ـ العمّة تعرف ذلك كما لا أجهل أنا أنّه يشقيها.

فاعترضتُ بصوت يخونه الاطمئنان:

قد تشقو لغير هذه العلّة. والحزن من مزاجها.

فقالت بغضب:

ـ إنّك تسعى دائماً إلى اطمئناني. إلاّ أنّ هذا الشأن لا يهمّني. ولا يفوتني أنّ عدداً من الأشياء تخفيها عنّي حتى تجنّبني القلق والاغتمام: أشياء كثيرة لا أعرفها، وأحياناً... وراح صوتها ينخفض أكثر فأكثر، ثم توقّفت كما لو كانت على نَفَسِها الأخير.

واستندت إلى عبارتها الأخيرة وقلت:
ـ ماذا تعنين بـ. . . «أحياناً»؟ . . .
فأجابت بكآبة:
ـ كل هذه السعادة التي أُدين بها إليك ترتكز كما يخيّل إليّ على الجهل.
ـ ولكن يا جرترود. . .
ـ دعني أُكمل:

إنّني لا أرضى بمثل هذه السعادة. ويجب أن تعرف أنني. . . أنّني لا أُعلّق كبير أهمية على السعادة، إذ أفضل لديّ أن أعرف. أشياء كثيرة محزنة، لا أستطيع رؤيتها ولا يجوز أن أظلّ أجهلها. فكّرت مليّاً طوال أشهر الشتاء، وبتّ أخاف أن يكون العالم دون ذلك الجمال الذي شئت أن تصوّره لي. هذا إذا لم يكن خالياً من أشياء كثيرة.

فقلت لها بصوت يتملّكه الخوف وأنا أتوخّى إعطاءها البرهان عن ذلك:
ـ لا أنكر عليك أنّ يد الإنسان كثيراً ما عملت على تشويه الأرض.

كانت تخيفني بأفكارها المتحفّزة. وبان لي كأنّها كانت تنتظر أن تسمع منّي هذه الكلمات. فتعلّقت بها فوراً تعلّق السلسلة بالعقفة ليتمّ انغلاقها. فصاحت:

ـ هذا بالتحديد ما كنت أرغب معرفته. وإن وددت أن أعرف فلكيلا أضيف شيئاً مني إلى الشرّ القائم فيها.

ظللنا نسير بخطى سريعة، وخيّم السكون علينا. وكلّما راودني كلام أقوله لها، كان يصطدم مسبقاً بالذي كنت أحسّه في فكرها. فتهيّبت كل عبارة قد تثير أحدنا ويتوقّف عليها مصيرنا، وشعرت بما يعتصر فؤادي ساعةَ تذكرت كلام مارتين عن حتمال إعادة النظر إليها.

وأضافت:

ـ كنت أودّ أن أسألك، إلا أنّني لا أعرف كيف أقول لك ذلك...

كانت تسعى إلى تجميع قواها كما أنا قبلٍ لحظة فيها كنت أصغي إليها وهي تتكلّم. ولكن أنّى لي أن أدرك مسبقاً سبب عذابها وراء هذا السؤال. فقالت:

ـ هل يولد أبناء الضريرة أضرّاء بحكم الطبيعة؟

لم أكن أعرف مَن منّا تحمّل العبء الأكبر من شجون هذا النقاش، إنما كان علينا أن نستمرّ فيه. فقلت:

ـ لا، يا جرترود، باستثناء حالات نادرة شاذّة. ولا داعٍ لأن يحصل مثل هذا.

ويظهر أنّ هذا الجواب أفحمها، فاطمأنّت إليه كل الاطمئنان.

ورغبت في سؤالها بدوري عن السبب الذي حداها على طرح هذا الأمر. إلاّ أنني لم أجد الشجاعة الكافية لديّ حتى أدلي به. وتابعت كلامي بغباوة:

ـ انتبهي، يا جرترود، المرأة المتزوّجة وحدها تنجب الأولاد.

ـ لا تقل لي مثل هذا الكلام، لأنني أعي عدم صحّته.

فعدت أقول:

ـ أسمعتك ما يجوز لي أن أُجهر لك به فقط. غير أن للطبيعة سنّة قد تجيز ما تحرّمه نظم الإنسان وشريعة الله.

ـ قلت لي غير مرّة إن شريعة الله هي شريعة الحب نفسها.

ـ الحبّ الذي نعنيه الآن هو غير الذي نسمّيه محبة.

ـ هل حبّك لي من نوع المحبّة؟

ـ تعرفين جيّداً، يا جرترود، أن لا.

ـ إذن تعرف أنّ حبّنا يجاوز شريعة الله؟

ـ ماذا تقصدين بكلامك هذا؟

ـ آه! أنت تعرف كل ذلك. ويجب أن تكون المبادرة منك لا مني.

وعبثاً حاولت أن أراوغ. وشعرت بقلبي يخفق ويعلن تراجع حججي وهزيمتها.

فقلت لها وأنا في ضياع:

ـ هل تعتقدين، يا جرترود، أنّ في حبّك ما يمكن أن تؤاخذي عليه؟

ـ بل قل في حبّنا . . . تحدّثني نفسي بوجوب افتراض شيء من هذا .

وشعرت كأنني في حيرة من أمري، وفي صوتي توسل واستجداء بينما كانت تسترسل في كلامها تباعاً، تقول:

ـ إنني لن أجد إلى الامتناع عن حبّك سبيلاً .

حدث كلّ هذا أمس. وترددت في البداية عن تدوينه. لم أعرف كيف انتهت نزهتنا. فكنّا نسير بعجلة وكأننا نحاول الهرب، وكنت أمسك بذراعها مشدودة إليّ. كانت نفسي تخلّت عن جسدي وكدت أحسب أنّ أصغر حصاة تطأها أقدامنا في الطريق، كافية لترمينا أرضاً.

١٩ أيار

عاد إلينا الدكتور مارتين هذا الصباح. وأفادني أن عملية جرترود ممكنة، وأن الدكتور رو يؤكّد نجاحها، وهو يشير أن توضع لبعض الوقت في عهدته. ليس بإمكاني أن أعترض على هذا العرض. غير أنّني طلبت، جبناً منّي، مجالاً للتفكير، وأن تترك لي فرصة تهيئتها على مهل... كان يجب أن يطيرَ قلبي فرحاً لمثل هذا الخبر، إلاّ أنّني شعرت بقلبي يثقل فيَّ، بقلق لا يُعَبَّر عنه بكلام. كما أحسست أنّه يعوزني، عندما خطري لي فكرة إخبار جرترود باحتمال إعادة بصرها إليها.

١٩ أيار ليلاً

عدت إلى مقابلة جرترود، ولم أُوجّه إليها كلمة. في هذا المساء، وإذ لم يكن أحد في قاعة الاستقبال صعدت إلى غرفتها حيث وُجِدنا معاً منفردين.

ضممتها طويلاً إلى صدري، ولم تبدر منها أيّة حركة تشير إلى تمنّع أو رفض، وفيما كانت ترفع جبينها نحوي التقى ثغري شفتيها. . .

٢١ أيار

أمن أجلنا، يا ربّ، جعلت الليل بهذين العمق والجمال؟ أوَ من أجلي أنا؟ الهواء عليل، وضوء القمر ينساب إلى غرفتي عبر النافذة فأصغي إلى سكون السماوات الهائل. يا لجمال هذه المخلوقات، يذوب قلبي في ذهول لا كلام فيه. وبتّ لا أستطيع أن أصلّي إلاّ في ضياع. فإذا كان من تحديد للحبّ فلست أنت واضعه، يا إلهي، لأنّه من وضع البشر. ومهما رأى الناس في حبّي تجاوزاً، فاجعله مقدّساً في عينيك.

أسعى لكي أرتفع فوق فكرة الخطيئة. فالخطيئة شيء تسلّم به نفسي، ولا أريد مطلقاً أن أتخلّى عن يسوع. أرفض الخطيئة في حبّي لجرترود. ولا أستطيع انتزاع هذا الحبّ ه قلبي إلاّ بانتزاع قلبي. وفي سبيل أيّة غاية عساي أسعى ! هذا؟ أكفّ عن حبّها فسأضطرّ أن أعود إلى مثله، شفقة ه عليها. أو ليس في تخلّيّ عنها خيانة لها: إنّها في حاجة إ حبّي.

ربّي، عند هذا الحدّ تقف كل معرفتي... لم أعد أعرف سواك. قُدْ خطاي. يخال إليّ أحياناً أنني أغوص في الظلمات وأن البصر الذي سيعود إليها أُخِذَ منّي.

دخلت أمس جرترود عيادة لوزان، ولن تغادرها قبل عشرين يوماً. انتظر عودتها بخوف بالغ. وسيعيدها إلينا الدكتور مارتين. أعطيتها عهداً على نفسي بألّا أسعى إلى رؤيتها قبل هذا التاريخ.

٢٢ أيار

رسالة من مارتين: نجحت العمليّة والحمد لله.

٢٤ أيار

ها هي مُقبِلة لا محالة على رؤيتي، هي التي أحبّتني حتى هذه الساعة دون أن ترى صورة لوجهي. هذا التفكير يرميني في قلق لا يحتمل. فهل سيكتب لها أن تعرفني؟ لأوّل مرّة في حياتي أقف قُبالة المرآة بِحَيْرة، لأسألها عن نفسي. فإلى أيّ مصير سائر أنا، إذا ما ألفيت في نظراتها نقصاً في ذينك العطف والحبّ اللذين طالما أحسستهما في قلبها نحوي. ربّاه، يخال لي أحياناً أنني أفتقر إلى حبّها لكي أحبّك.

٢٧ أيار

مزيد من الأشغال سمح لي بقضاء هذه الأيام الأخيرة دون ضجر. فكلّ عمل ينتزعني من نفسي، مبارك في عينيّ. إلّا أنّ صورتها تلاحقني طوال يومي وعبر كل شيء.

إنها عائدة إلينا في الغد.

طيلة هذا الاسبوع راعتني آميلي بكلّ عاطفة نبيلة. ويظهر أنّها أخذت على عاتقها أن تُنسيني بُعدَ الغائبة عنّا، وتستعدّ مع الأولاد للاحتفال بعودتها.

٢٨ أيار

ذهب غاسبار وشارلوت لقطف ما يجدان من أزهار في الأحراج والمروج. وزالي العجوز تعدّ قالباً من الكاتو تزيّنه سارة بالأوراق المذهبة، وسيكون جاهزاً بعد الظهر.

أكتب الآن لكي أملأ فراغ انتظاري. والساعة تشير إلى الحادية عشرة. ولا أنفكّ لحظة واحدة عن رفع رأسي لأتطلّع نحو الطريق حيث ستمرّ عربة الدكتور مارتين. لن أذهب إلى ملاقاتها. فذلك أنسب وفيه مراعاة لشعور زوجتي حتى نكون معاً في استقبالها. قلبي يتحفّز... آهٍ! ها هما وصلا!

٢٨ أيار مساءً

في آيّة ليلة مقيتة أراني أغوص! ربّاه! امددني برحمتك! فرحمتك تعوزني! تخلّيت عن حبّها، فلا تسمح أنت بموتها!

كم كنت على صواب في تخوّفي! ماذا فعلت؟ أو ماذا شاءت أن تفعل؟ قالت لي آميلي وسارة إنهما رافقتاها حتى باب الآنسة دي لا م. رغبت إذن أن تعود خارج البيت... وماذا جرى بعد ذلك؟

أسعى إلى تنسيق أفكاري. فالروايات التي سمعتها غير مفهومة أو هي متناقضة. وكل ما يدور في رأسي مبهم يدعو إلى الارتباك... فالبستاني الذي يعمل لدى الآنسة دي لا م... أعادها منذ لحظة فاقدة وعيها وأخبر أنّه رآها تسير في محاذاة ضفّة النهر وتجتاز جسر البستان، فتنحني ثم تختفي. وإذ لم يكن يقدّر أنّها وقعت، فلم يسرع إلى نجدتها كما مفروض أن يعمل. عثر عليها لاحقاً عند السدّ الصغير حيث جرفتها مياه النهر. وعندما رأيتها بعد ذلك بقليل، لم تكن

عادت بعد إلى رشدها، أو أنّها كانت فقدته للمرّة الثانية. لم يمضِ سوى القليل من الوقت حتى استيقظت بفضل تلك العناية التي بذلت في سبيلها على الفور. والدكتور مارتين الذي لم يكن غادرنا بعد، ولله الحمد، لم يدرك معنى لذينك الخبل والانحطاط اللذين أصاباها. وعبثاً حاول أن يسألها عن السبب. بانت وكأنها لا تسمع أو كأنّها تتعمّد السكوت. وظلّ تنفّسها عسيراً. ويخشى عليها مارتين من احتقان في رئتيها، وعالجها بلزقات الخردل والمحاجم ووعد أن يأتي لعيادتها في الغد. والخطأ، كل الخطأ، أنّهم أبقوا عليها ثيابها المبتلّة بمياه النهر الباردة خلال انهماكهم بإعادة الروح إليها. والآنسة دي لا م... استطاعت وحدها أن تسترقّ منها بعض الكلمات. وتقول إنها شاءت أن تقطف بعض أزهار «لاتنسني» التي تنمو بكثرة في هذه الجهة من النهر، فزلّت بها القدم بغتةً كونها تجهل قياس المسافات، وحسبت أن ذلك البساط الواسع من الأزهار هو من الأرضِ اليابسة... يا ليتني أقوى على تصديق مثل هذا الكلام فأُقنع نفسي بأنّ ما جرى كان مجرد عارض حدث فأزيل من قلبي كابوساً مرعباً يثقله! وخلال الوليمة التي تمّت في غاية من المرح، كانت بسماتها غريبة لا تفارقها. أقلقتني هذه الغرابة في هذه البسمات المغتصبة لم أعهدها فيها من قبل. حاولتُ أن أنسبها إلى نظراتها الجديدة.

فكانت أشبه بسيل من الدموع يجري على خدّيها، مقابل أفراح الآخرين المبتذلة تغيظني بابتذالها. لم تكن تشترك معهم في هذا الفرح، وكأنها اكتشفت سرّاً كانت ولا شك كاشفتني به لو قدّر لنا أن نكون معاً منفردين. كانت قليلة الكلام ولم يكن هذا بالأمر المستجدّ عليها، عندما تكون بين جماعة من النـاس. فبقدر ما يبالغ هؤلاء في إعـلان ابتهاجهم، تلجـأ هي إلى الصمت.

ربّاه: أتوسل إليك، توفّر لي فرصة الكلام معها. فإني في حاجة إلى معرفة سرّها، وإلّا فقد تضيق بي الحياة... هل استبدّ بها النزق إلى حدّ طلب الموت لأنها «عرفت»؟ وماذا تُراها عرفت؟ فما عرفتِ يا صديقتي مما أرعبك؟ أو ما أخفيت أنا عنك من زلّات البشر واستطعت أن تعيها بسرعة؟

امضيت أكثر من ساعتين حدّ سريرها، ولم يفارق نظري جبينها، وخدّيها الشاحبين، وأجفانها الدقيقة المغمضة على قلة لا يُعَبَّر عنه، وشعرها الذي ما زال مبلّلاً، الشبيه بالطحلب والمنبسط حولها على المخدّة. راقبت كل ذلك وأنا أنصت إلى تنفّسها المتفاوت والمتعب.

٢٩ أيار

استدعتني، هذا الصباح، الآنسة لويزا في الـوقت الذي كنت استعد للذهاب. فبعد ليلة شبه هادئة، أفاقت جرترود من غيبوبتها. وابتسمت لي عند وصولي وأشارت إليّ بالجلوس عند سريرها. لم أجسر على أن أطرح عليها بعض الأسئلة وكانت هي تتهيّب أسئلتي خشية كل انفعال، فبـادرتني إلى الكلام:

كيف تسمّي تلك الأزهار الزرقاء التي حاولت قطفها من عن ضفاف النهر والتي لها لون السماء؟ وإذ كنت أمهر منّي في هذه العمليّة، فهل لك أن تقدم لي باقة منها، أضعها إلى جانب سريري؟ . . .

المرح الذي تكلفته في صوتها، آلمني وشعرت هي ولا شك بما جال في خاطري، فأضافت برصانة:

ـ لا أستطيع أن أتحدّث إليك هذا الصباح لأنّني متعبة. فاذهب إذا شئت، واقطف هذه الأزهار، وعد إلينا عاجلاً.

لدى عودتي؛ بعد ساعة، كنت أحمل معي باقة الزهور. أفهمتني لويزا أنها في حاجة إلى الراحة ولا تستطيع أن تستقبلني قبل المساء.

عدت في المساء وقابلتها. كانت تستند إلى عدد من الوسادات حولها وأبقتها شبه جالسة. وكان شعرها مجموعاً ومجدولاً فوق جبهتها واندمج بالأزهار التي أحضرتها.

كانت محمومة العياء ظاهر عليها. أبقت يديّ التي مددْتُها لها، في يدها الساخنة، ومكثت أنا واقفاً حدّها، قالت:

ـ يجب أن أُدلي إليك ببعض الاعترافات لأنني أخشى أن أموت هذا المساء. كذبت عليك في الصباح... وقطف الأزهار لم يكن غايتي... فسامحني: حاولتُ أن أقتل نفسي.

فركعت على ركبتيّ عند سريرها وأنا أحتفظ بيدها النحيلة في يدي. غير أنها سحبتها وراحت تمرّرها على جبيني في مداعبة، بينما غطّيت رأسي بالشراشف لأخفي عنها دموعي ونحيبي.

عادت إلى الكلام وقالت بحنان: هل تجد في ذلك عملاً شرّيراً؟

وإذ لم أكن أُجيب بكلمة تابَعَت:

أجد ياصديقي أنني احتللت مركزاً كبيراً في قلبك وفي حياتك. وهذا ما بدا لي فور عودتي إليكم؛ أو أن المكان الذي

احتللته كان لغيري وكان سبباً في شقائه. خطيئتي أنني لم أقدّره من قبل، أو بالأحرى كوني سمحت لك بأن تحبّني بينما كنت أعرف ذلك. ولكنّني عندما رأيت وجهها لأول وهلة، ورأيت على هذا الوجه التعيس، الكثير من الحزن، لم أعد أستطيع أن أتحمل فكرة هـذا الشقاء بسبب... لا، لا تـوبّخ نفسك بشيء، اتركني اذهب وأعِدْ إليها فرحها.

كفّت يدها عن مداعبة جبيني، فأخذتها بيدي وملأتها بالقُبَل والدموع. غير أنّها سحبتها بجزع وعاودها ضيقها ليُتعبها من جديد فراحت تردّد:

ـ ليس هذا ما كنت أرغب في إعلانه. لا، ليس هذا ما أردتُ بيانه لك.

ولاحظتُ عندئذ أنّ العرق ندّى جبينها. فأحنت جفنيها وأغمضت عينيها بعض الوقت، كما لو كانت تحاول تجميع أفكارها أو أن تستعيد حالة عماها. ثم تكلّمت بصوت خامل يسوده اليأس، وأخذ يرتفع بينما تفتح عينيها حتى تردّى بالحدّة، قالت:

ـ عندما أعطيتني البصر، انفتحت عيناي على عالم أجمل من الذي توقّعت أن يكون. أجل، لم أكن أتصوّر النهار بمثل صفائه، ولا هذا الجوّ بمثل تألّقه، ولا السماء برحابتها. كما لم

أكن أتخيّل جباه الناس بمثل صلابتها. هل تعرف أوّل ما بدا لي ساعة دخلت بيتكم... آه! يجب عليّ أن أفصح لك عنه: فالذي رأيت أوّلاً: هفوتنا وخطيئتنا. لا تعترض. وتذكّر كلام المسيح القائل: «لو كنتم عمياً لما كانت لكم خطيئة». إلّا أنّني بتُّ الآن أرى كل شيء... انهض، أيّها القس، واجلس إلى جانبي. واصغِ إليّ دون أن تقاطعني بكلمة. فخلال الوقت الذي أمضيته في العيادة، قرأت، أو سمعت من قرأ لي، بعض المقاطع من الكتاب المقدّس لم أكن بعدُ عرفتها ولم تكن أنت قرأتها لي. أذكر آية للقديس بولس كررت تلاوتها طوال يوم بكامله: «أمّا أنا، وإذ لم يكن لي شريعة، فكنت أعيش؛ وعندما جاءت الوصيّة، عادت الخطيئة إلى الحياة، ومُتّ أنا».

كانت تتكلّم بانفعال بالغ وبصوت مرتفع جدّاً وذكرت هذه الكلمات الأخيرة بشبه صياح، بمّا أزعجني إذ خفت أن يسمعها أحد من الخارج. ثمّ أغمضت عينيها من جديد وراحت تُعيدها تكراراً، كما لنفسها، وتتلوها في تمتمة:

«وعادت الخطيئة إلى الحياة ومتّ أنا».

فارتعدتُ خوفاً وجمد قلبي على شيء من الرعب، وشئت أن أحوّل أفكارها عن هذا الموضوع وقلت:

ـ من قرأ عليك هذه الآيات؟

ففتحت عينيها وحدّقت إليّ وقالت:

ـ جاك. هل عرفت أنّه اهتدى؟.

تكلمَتْ أكثر من اللازم. وكنت على أهبة الكلام لأرجوها الوقوف عند هذا الحدّ. إلّا أنّها تابَعَت:

ـ إنني جادّة في إزعاجك، ياصديقي، ولكن يجب ألّا أترك شيئاً مما هو كذب قائماً بيننا. عندما رأيت جاك، أدركت فوراً أنّه هو الذي أحببتُ لا أنت. كان وجهه نسخة عن وجهك، وفق ما تخّيلت أن يكون وجهك... آه! لماذا أبعدته عنّي؟ كان بإمكاني أن أتزوّج منه...

فصحت بشيء من اليأس:

ـ لا يزال ذلك ممكناً.

فقالت بحدّة:

ـ اعتنق السلك الرهباني.

ثم هزّتها نوبة من التشيج وتأوّهت وقالت كما في رؤيا:

ـ «آه! كم وددت أن أعترف لديه... لم يبق لي سوى أن أموت، أنا عطشانة، أرجو أن تنادي أحداً. إنني أختنق. اتركِني وحيدة. آه! نشدت التعزية عبر كلامي هذا. ارحل عني. يجب أن نفترق. لم يعد باستطاعتي، بعدُ، أن أراك».

انصرفتُ عنها، واستدعيتُ إليها الآنسة دي لا م... حتى تقوم مقامي في السهر عليها. أخافني اضطرابها وجعلني أخشى

عليها كل أمر. إنما لـزمني إقناع نفسي بـأنّ مجرّد وجـودي عندها، مدعاة لتأزيم وضعها، ورجـوت من الحاضـرين أن يبادروا إلى إعلامي إذا ساءت حالتها.

٣٠ أيار

وا أسفاه! شاء القدر ألاّ أراها إلا راقدة. ماتت هذا الصباح، عند طلوع النهار، إثر برقيّة أرسلتها الآنسة دي لا م... بناءً على طلب جرترود نفسها. لامني بقسوة، إذ لم أدعُ إليها أحد الكهنة وكان لِديّ المتّسع من الوقت لمثل هذا الإجراء. ولكن كيف تراني أُقدِم، وكنت لا أزال أجهل ارتدادها. حصل هذا أثناء إقامتها في لوزان وبدافع منه. في تلك اللحظة، أطلعني على اهتدائه واهتداء جرترود. وهكذا طلّقاني معاً، وأنا فرّقتُ بينهما لمدى الحياة، وكأنّهما تواعدا على الهرب منّي ليتّحد كلاهما بالله. وإنني على يقين أنّ اهتداء جاك حصل بعامل عقلانيّ ترجّح على عامل الحب.

قال:

- لا يليق بي، يا أبي، أن أتّهمك، إلاّ أنَّ مَثَل ضلالك، قادني إلى سويّ الطريق.

بعد انصراف جاك، ركعت على ركبتيّ حدّ زوجتي آميلي،

أسألها أن تصلّي من أجلي، لأنّني كنت في حاجة إلى المساعدة. فاكتفت بتلاوة «الأبانا»، على مهل، وسط فترات من السكوت ملأناها بتضرعاتنا.

أردت أن أبكي، لكنّني أحسستُ قلبي أكثر جفافاً من رمال الصحارى.

فهرس

منشورات عويدات ١٩٨٥/٨٩١

André Gide

La symphonie pastorale

Traduction arabe
de
Georges BARAKAT

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

André Gide
La symphonie pastorale

